الفصل الثالث
النص الحجاجي العربي
دراسة في وسائل الإقناع

الفصل الثالث

النص الحجاجي العربي

دراسة في وسائل الإقناع

١ – توطئة

توصيف مكونات البنية الحجاجية للنص الحجاجي العربي نوعا نصيا خاصا ، واستقراء وسائل الإقناع المنطقية واللغوية وتحليل صورها المختلفة انطلاقا من معطيات العينات النصية المختارة لهذه الدراسة ذاتها ، هما الهدفان الأوليان اللذان تسعى دراستنا إلى تحقيقهما . وقد اقتضى تحقيق هذين الهدفين تمهيد السبيل إلى التطبيق بهذه التوطئة النظرية التي نرمى بها إلى إلقاء ضوء على المفاهيم والأسس النظرية ذات الصلة الوثقى بمحتوى المعالجة التطبيقية .

(أ) أنواع النصوص

التمييز بين أنواع النصوص وفقا لمعايير لغوية واتصالية هو مجال نظرية أنواع النصوص Text Type Theory . لا نعني هنا بتقديم مراجعة شاملة لأدبيات هذه النظرية ،ولكننا نمحض القول فيما يناسب أهداف الدراسة . هدف نظرية أنواع النصوص تكشيف خواص البنية اللغوية وأنماط الوظائف الاتصالية التي يغلب ارتباطها بنوع نصي بعينه مقارنا بسائر الأنواع الأخرى . الهدف من تصنيف النصوص إلى أنواع محددة هو دائما اختصار العدد غير المتناهي من نصوص حقيقية إلى أنماط كبرى قابلة للتحديد و التحليل .

كان للاتجاه الموجه إلى النظام اللغوي من منظور بنائي ، لا سيما من منظور الملامح النحوية ، إسهامه في نظرية النص . كانت نقاط التركيز فيه مختلفة : طرق

توزيع الأزمنة في النص ، وطرق استخدام العناصر الإشارية ، وطرق الربط الإحالي ... إلخ . بيد أن أكثر الإسهامات اللاحقة في نظرية النص قد أثبتت عجز البحوث البنائية الموجهة إلى النظام اللغوي وحده عن أن تمدنا بوسائل كافية لتصنيف مناسب للنصوص من حيث هي واقعات في سياق التفاعل الاتصالي . لقد لوحظ أن النص الواحد يمكن أن يشتمل على أكثر من نوع نصي واحد ، وهو ما يوجب أن يتحلى نموذج «نوع النص» بصلاحيته لأداء أفعال لغوية معقدة ذات ارتباطات بالعلامات السياقية ـ الموقفية ، والعلامات الوظيفية ـ الاتصالية ، والعلامات البنائية النحوية والموضعية جميعا [(١)] .

ويحدد برنكر Brinker ثلاثة معايير للتمييز بين أنواع النصوص في علم اللغة النصي :

١- الوظيفة النصية معيارا أساسيا : ويقود هذا المعيار إلى التمييز بين أنواع نصية خمسة : إخبارية (كالخبر والتقرير) وطلبية (كالقانون والطلب) والتزامية (كالعقد والضمان) واتصالية (كالإعراب عن الشكر) وإقرارية (كالوصية) .

لوحظ أن هذه الأنواع المحددة في إطار وظيفة النص واسعة جدا ، ويمكن

---

(١) راجع في تفصيل ذلك:

- دوبوجراند (روبرت) : النص والخطاب والإجراء ، ترجمة . د. تمام حسان ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى القاهرة (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) ص ٤١١ .
- حاتم (باسل) – ميسون (إيان): الخطاب والمترجم ، ترجمة د. عمر فايز عطاري ، النشر العلمي والمطابع بجامعة الملك سعود ، الرياض (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) ص٢١٥-٢١٦ .
- Brinker, Klaus: linguistische Textanalyse. Eine Einfuehrung in Grundbegriffe und Methoden. 3., durchges. und erw. Aufl . (1992) S. 131.

أن توزّع على نحو آخر إلى أنواع أكبر .

٢- المعايير السياقية : وتجرى على مستوى الوصف الموقفي الذي يضم مقولتي «شكل الاتصال Kommunikationsform» و «مجال الفعل Handlung sbereich» . ويحدد الموقف الاتصالي من خلال الوسيط الذي تنقل عبره النصوص . ويميز هنا بين خمسة وسائط : الاتصال المباشر (وجها لوجه) والاتصال الهاتفي ، والاتصال الإذاعي ، والاتصال التليفزيوني ، والاتصال المكتوب .

تؤسس العلامات الموقفية التي تخص كل وسيط على حده أنواعا للاتصال ، من أهمها : المحادثة المباشرة (وجها لوجه) ، والمحادثة الهاتفية ، والإرسال الإذاعي، والإرسال التليفزيوني ، والرسالة ، والمقالة الصحفية أو الكتاب .

٣- المعايير البنائية : وتتخذ في الجانب البنائي المقولتين الموضعيتين : «موضوع النصText thema» و« الشكل الذي يظهر فيه الموضوع Form der Themenentfaltung» أساسين للتمييز بين أنواع النصوص :

(أ) موضوع النص: و يشتمل على التركيز الزمني للموضوع ، وهو ما يعرف باسم «التوجه الزمني» : ما قبل الكلام ، وزمن الكلام ، وما بعد زمن الكلام . مثال ذلك الأنواع النصية : الخبر ، والبروتوكول ونحوهما . ويشتمل موضوع النص أيضا على « التوجه المكاني » ؛ أي العلاقة بين المرسل والمستقبل وبين الموضوع :

الموضوع =المرسل

الموضوع =المستقبل

الموضوع= ما يستثنى منه شركاء الاتصال . ومثال ذلك التعليق الصحفي .

(ب)الشكل الذي يظهر فيه الموضوع : ويميز هنا بين النص الوصفي ، والنص السردي ، والنص الحجاجي أو(الجدلي) . هذه الأشكال الكبرى التي تظهر فيها الموضوعات وثيقة الصلة بوظائفها النصية [(١)].

إذا ميّزنا بين الأنواع النصية الثلاثة : الوصفية ، والسردية ، والحجاجية ، على أساس مفهوم « مراكز الضبط Control Centers في عالم النص ، كما فعل دو بوجراند ، لرأينا أن مراكز الضبط في النصوص الوصفية Descriptive هى ـ في معظمها ـ تصورات للشيء والموقف ، وهي في النصوص السردية Narrative تصورات الحدث والعمل ، وهى في النصوص الحجاجية Argumentative قضايا كاملة تنسب إليها قيم صدق وأسباب لاعتقاد كونها حقائق . ويغلب أن يكون هنالك تعارض بين القضايا التي تتصادم فيها القيمة لكونها موصوفة بالصدق truth assignment [(٢)].

لقد كان من أهم العلل التي أمسكت بها الإسهامات الأولى في نظرية أنواع النصوص : أن كل نظرية تبحث عن القواعد التي تحكم نصا بعينه ، وتنظر هل هى قواعد يختص بها هذا النوع ، أم أنها قواعد مشتركة . ومن أهم تلك العلل أن كلا من علوم اللغة وعلم الأدب معنى بمشكل تحديد أنواع النصوص . ومن ثم ، ينهض السؤال عن إمكانيات إسهام المعايير اللغوية في ذلك المشكل [(٣)].

---

(١) Brinker, Op. Cit., SS. 133- 139.

(٢) النص الخطاب والإجراء ، مرجع سابق ص ٤١٥ – ٤١٦ .

(٣) راجع في تفصيل ذلك: =

= Guelich, Elizabeth – Raible, wolfgang: Textsorten Probleme. IN: Linguistische Probleme der Textanalyse . Schwann. Duesseldorf. 1 Auflage (1975). SS. 144-197, SS. 146-147

(ب) الحجاج والنص الحجاجي

في علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية المعاصرة عرف الحجاج من زوايا شتى : السمات الموضوعية العامة ، أو البنى اللغوية المميزة ، أو الغرض البلاغي والوظيفة الاتصالية ، أو التقاط سمة أولية مائزة ، ... إلخ . تطول القائمة بالتعريفات إن مضينا مع أدبيات علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية ، حتى نراها تدنو كثيرا من جوهر الحجاج تارة وتنأى عنه قليلا تارة أخرى . من أهم التعريفات التي نراها أدنى من غيرها إلى جوهر الحجاج ما يلي :

١- الحجاج عند أندرسين Andersen ودوفرDovre طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية ، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة والتأثير في وجهات النظر والسلوك [(١)].

كون الحجاج طريقة من التحليل والتعليل يستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين مما تبنى عليه تعريفات أخرى عدة ، نراها عند روبرت هوبر R. Huber[(٢)] ، وعند كل من ماكبورني McBurney وميلز Mills[(٣)] . ، وعند كل من فيشر Fisher و سايلز Sayles[(٤)] وغيرهم .

---

(١)Andersen, Jerry, M. – Dovre , Paul, J. : Readings in Argumentation. Allyn and Bacon, Inc. Boston (1968) p.3.

(٢) Huber, Robert, B.: Influencing through Argument. David Mc Kay Co. Inc. New York (1963) p.4.

(٣)McBurney, J. – Mills, g. E.: Argumentation and Debate. Mac Millan Co. New York (1964) p. 1.

(٤) Fisher, Walter – Sayles, Edward: The Nature and Functions of Argument. In : Gerald r. Miller and Thomas r. Nilsen (eds.J): Perspectives on Argumentation. Scott, Foresman and Co. Chicago (1966) pp. 3-27, pp. 3-4 .

٢- والحجاج عند بيريلمان Perelman وتيتكا Tyteca طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو إلى زيادة درجات تلك الاستمالة (١).

والاستمالة أو الموالاة Adherence هي العنصر الأهم الذي بنيت عليه تعريفات أخرى ، من أهمها تعريف ريك Rieke وسيلارز Sillars . يعرف هذان الباحثان الحجاج بأنه عملية عرض دعاوي تتضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة بغية الحصول على الموالاة لإحدى تلك الدعاوي (٢).

٣- وتبرز تعريفات أخرى كون الحجاج فعلا لغويا أو عملية اتصالية أو جنسا من خطاب تفاعلي مع إبراز أهم مكوناته ، على نحو ما نجد في تعريف أوتس ماس Utz Maas ، وديبورا شيفرين Deborah Schiffrin ، وكل من هاينمان Heinemann وفيفيجر Viehweger :

فالحجاج عند ماس سياق من الفعل اللغويHandlungszusammenhang تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلف في شأنها . هذه الفرضيات المقدمة في ذلك الموقف الحجاجي هى مشكل الفعل اللغوي (٣).

والحجاج عند شيفرين جنس من الخطاب ، تبنى فيه جهود الأفراد دعامة

---

(١) Perelman, Ch. – Tyteca, Olbrechts: Traite de L'argunentation. Presses unibersitaire de Lyon (1981) p.92.

(٢) Rieke, Richard, D. – Sillars, Malcolm, O.: Argumentation and the decision Making Process. John Wiley and Sons, Inc. USA (1975) pp. 6-7.

(٣) Mass, Utz: Sprachliches Handeln II: Argumentation. In : Hans Buehler (herdq.) : Sprache 2. Fischer Taschenbuch Verlag Frankfurl (1973) SS>158-178, S. 158

مواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه الذي ينقضون فيه دعامة موقف خصومهم [١].

والحجاج عند كل من هاينمان وفيفيجر عملية اتصالية . هي كل ضرب من ضروب عرض البرهان الذي يعلل الفرضيات والدوافع والاهتمامات [٢].

تلك نماذج من أهم تعريفات الحجاج ، دارت حول عناصر موضوعية وبنائية ووظيفية شتى . خلاصة تلك التعريفات : أن الحجاج جنس خاص من الخطاب ، يبنى على قضية أو فرضية خلافية ، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا ، قاصدا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية .

في ضوء التعريفات السالفة يمكن تحديد الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي فيما يلي:

١- العلاقة بين أجزاء النص الحجاجي علاقة منطقية logical أكثر من كونها علاقة تصورية Perceptual كما هي الحال في النص غير الحجاجي . ويقصد بالعلاقة التصورية تلك التي تصدر عن تجربة محددة مقيدة بزمن التصور وبحدث التصور . والعلاقة المنطقية علاقة استنباطية invented غالبا ، في مقابل العلاقة التصورية المباشرة غالبا في النص غير الحجاجي [٣].

---

(١) Schiffrin, Deborah: Everyday Argument: The Organization of Diversity in Talk In: Teun A. van Dijk (ed.) : Handbook of Discourse Analysis,. Vol. 3 :Discourse and Dialogue. Academic Press. London. 3d. Edition (1989) pp. 35-46, p. 35 .

(٢) Heinemann, Wolfgang – Viehweger, Dieter: Texlinguistik. Eine Einfuehrung. Max Niemeyer Berlag. Tuebingen (1991) S. 249.

(٣) Brandt, William, J. : The Rhetoric of Argumentation. 1 st. Printing. USA (1970) p. VII.

يبين وليم برانت William Brandt ذلك بأن جوهر الحجاج إنشاء رابطة مقنعة بني عبارتين ، ومن ثم يعتمد النص الحجاجي اعتمادًا كبيرًا جدًا على بنية أساسية عند عالم المنطق ؛ وهي بنية القياس المنطقي . وفي الحجاج يرى الحكم على نتيجة القياس حكما على الحجج المقدمة – من حيث هي علاقة بين منطوقات تعبر عن قضايا محددة – بأنها صالحة أو فاسدة ،لا حكما عليها بالصواب أو الخطأ[1].

٢- يبنى النص الحجاجي – في شكله الرئيس – على مكونات ستة ، هي: الدعوى (أو النتيجة) Claim ، والمقدمات أو تقرير المعطيات Assertion of Data والتبرير Warrant ، والدعامة Support ، ومؤشر الحال Qualifier ، والتحفظات أو الاحتياطات Reservations :

الدعوى نتيجة الحجاج . هي مقولة تستهدف استمالة الآخرين . تذكر الدعوى صراحة ، وقد تضمَّن .

والمقدمات تقرير يصنعه المجادل عن أشخاص أو أحوال أو أحداث . وينبغي للمقدمات أن ترتبط بالدعوى ارتباطًا منطقيًا ، حتى تصلح لتدعيمها .

والتبرير بيان للمبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى وفقا لعلاقتها بالمقدمات .

والدعامة كل ما يقدمه المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلة وقيم ... إلخ ، حتى يجعل المقدمات والتبريرات أقوى مصداقية عند المستقبل .

---

(١) راجع في تفصيل ذلك:

Brandt, W. : The Rhetoric, op. cit., pp. 22-26.

ومؤشر الحال كل ما يقدم من تعبيرات تظهر مدى قابلية بعض الدعاوى للتطبيق ، نحو : من الممكن ، من المحتمل ، على الأرجح ... إلخ . والتحفظات هي الأساس الذي ينهض عليه الحكم بعدم مقبولية الدعوى[١] .

٣- النص الحجاجي نص تقويمي . والقيمة مفهوم يستنبط مما يقوله الناس ، ومما يفعلونه ، ومما تشيده المجادلات . والقيم – مع الدليل ومصادر معقولية الأشياء – تكون المادة التفاعلية التي يقدر بها الناس الحجاج الذي يستحق منهم الموالاة [٢] . والقيم من أهم المفاهيم التي يبنى عليها النص الحجاجي عند كل من دو بوجراند de Beaugrande ودرسلر Dresseler . ومن المفاهيم الأخرى: العلة ، والمعارضة . النص الحجاجي – في نظر هذين الباحثين – نص موظف لتقوية القبول أو تقويم معتقدات وأفكار [٣] .

(جـ) الحجاج والإقناع

يعرف توماس شايدل Thomas Scheidel الإقناع بأنه محاولة واعية للتأثير في السلوك[٤] . ويرى أوستين فريلي Austin Freely الحجاج والإقناع جزءين من عملية واحدة ، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد Emphasis . يولى الحجاج الدعاوى المنطقية أهمية خاصة ، ولكنه يجعل من اختصاصه أيضا الدعاوى

---

(١) راجع في تفصيل ذلك:

Rieke – Sillars: Argumentation, op. cit., pp. 77-78.

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) de Beaugrande, R. – Dressler, W. : An Introduction to Text linguistics. (1981) p. 184.

(٤) Scheidel. Thomas, M. : Persuasive Speaking. Scott,Foresman and Co. Glenbiew(1967) p. 1.

الأخلاقية والعاطفية . أما الإقناع ، فإنه ينعكس على التوكيد الذي يبطل ضده[١] .

في مقابل ذلك يرى كل من هوارد مارتين Howard Martin وكينيث أندرسين Kenneth Andersen أن كل اتصال هدفه الإقناع ؛ وذلك أنه يبحث عن تحصيل رد فعل على أفكار القائم بالاتصال[٢] . يبدو أن هذين الباحثين يعنيان بالإقناع هنا معناه العام، وليس الإقناع الحجاجي الذي يصدر عن وسائل منطقية ولغوية خاصة. يمكن توضيح هذه المسألة بالنظر في نصوص الخطابة العربية.يكون النص الخطابي نصا إقناعيًا، ولكنه ليس نصًا حجاجيا بالضرورة ؛ لأنه لا يعبر بالضرورة عن قضية خلافية. يعني هذا أن كل نص حجاجي نص إقناعي، وليس كل نص إقناعي نصا حجاجيا يرتبط الإقناع بالحجاج إذن ارتباط النص بوظيفته الجوهرية الملازمة في محيط أنواع نصية أخرى كالوصفيات والسرديات .

(د) الحجاج عند العرب

وهو الحجاج والاحتجاج والجدل والجدال والمجادلة . يضرب الحجاج بجذور قوية في الخطاب العربي . فضلاً عن الدور المهم الذي لعبه الحجاج في الحياة العقدية والسياسية في البيئة العربية الإسلامية ، وفضلاً عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطاب العلمي البلاغي ، على نحو ما نرى في دفاع عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) عن إعجاز القرآن بإقناع الناس بفكرة النظم ، مما طبع دلائله بطبيعة

(١) Freely, Austin, J. : Argumentation and Debate. Wodsworth Publishing co. Belmont. 2nd. Ed. (1966) p. 7.

(٢) Martin, Howard, H. – Andersen, Kenneth, E. : Speech Communication. Allyn and Bacon, Inc., Boston (1968) p. 6.

حجاجية واضحة [(١)] ، فضلاً عن كل ذلك ، شغل الحجاج بعض القدماء جنسا خاصا من الخطاب . يمكن أن نقف هنا على محاولتين مهمتين في دراسة الحجاج لكل من أبي الحسين إسحق بن وهب (ت ٣٣٧هـ) وحازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) .

يمكن تصنيف خلاصة فكر ابن وهب في «الجدل والمجادلة» في النقاط الرئيسية التالية:

١- قدم ابن وهب تعريفا دقيقا للجدل والمجادلة ، وضع فيه يده على مقصد الجدل ووقوعه في مسائل خلافية: «وأما الجدل والمجادلة ، فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين ، ويستعمل في المذاهب والديانات ، وفي الحقوق والخصومات ، والتنصل في الاعتذارات» [(٢)].

٢- الجدل – فيما يفهم من كلام ابن وهب – خطاب تعليلي إقناعي: فالجدل إنما يقع في العلة من بين سائر الأشياء المسئول عنها [(٣)]. وينبغي للمجيب إن سئل أن يقنع ، وأن يكون إقناعه الإقناع الذي يوجب على السائل القبول . وإذا كان الفلج في الجدل إظهار الحجة التي تقنع ، فالغالب هو الذي يظهر

(١) يلحظ حافظ قويعة أن حجاج عبد القاهر في الدلائل يقوده منطق قائم على قاعدة: «لا لأن ذلك يؤدي إلى ....» وهو – في رأيه – منطق أقرب إلى آلية «سد الذرائع» عند الفقهاء : قويعة (حافظ) : سياق الحجاج في دلائل لا الإعجاز ، بحث منشور في: عبد القاهر الجرجاني (أعمال ندوة) – منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة صفاقس – تونس (١٩٩٨م) ص ٢٥٣ – ٢٦٣ ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن وهب (أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان) : البرهان في وجوه البيان . تحقيق: د. أحمد مطلوب ود . خديجة الحديثي . ساعدت جامعة بغداد على نشره . الطبعة الأولى (١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م) ص٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٥ ، ٢٢٨ .

ذلك"[1].

٣- إذا كانت مقامات الجدل مقامات اختلافات وخصومات ونحوها ، فإن الاعتبار الأخلاقي من أوجب ما توجبه تلك المقامات ، بل هو أوجبها . وليس التمييز بين جدل محمود وجدل مذموم – فيما نفهم من كلام ابن وهب – إلا تمييزا ينظر فيه إلى حضور هذا الاعتبار أو غيابه . الجدل المحمود ما قصد به الحق واستعمل فيه الصدق . والجدل المذموم ما أريد به المماراة والغلبة ، وطلب به الرياء والسمعة [2]. إذا كان القصد هو الحق والصواب ، وجب على المجادل «ألا تحمله قوة إن وجدها في نفسه ، وصحة في تمييزه ، وجودة خاطره ، وحسن بديهته ، وبيان عارضته ، وثبات حجته ، على أن يشرع في إثبات الشيء ونقضه ، ويشرع في الاحتجاج له ولضده ، فإن ذلك مما يذهب ببهاء علمه ، ويطفئ نور بهجته ، وينسبه به أهل الدين والورع إلى الإلحاد وقلة الأمانة» [3].

والحق أن كثيرًا مما اشترطه ابن وهب في «أدب الجدل» ينبغي له أن يعزى إلى ذلك الاعتبار الأخلاقي . ومن أهم ما اشترطه :

(أ) أن يحلم المجادل عما يسمع من الأذى والنبز .

(ب) ألا يعجب برأيه وما تسوله له نفسه حتى يفضى بذلك إلى نصحائه .

(جـ) أن يكون منصفا غير مكابر ؛ لأنه إنما يطلب الإنصاف من خصمه ، ويقصده بقوله وحجته .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢)المرجع نفسه ص ٢٢٢ .

(٣)المرجع نفسه ص ٢٣٥ .

(هـ) ألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به ، وإن كان الخصم صغير المحل في الجدال [١].

٤- مما ذكره ابن وهب في مبحثي «الجدل والمجادلة» و «أدب الجدل» ما يمكن أن ينظر إليه الآن من منظور «الاستراتيجيات الاتصالية الحجاجية» . من أهم ذلك:

(أ) أن يبنى المجادل مقدماته مما يوافق الخصم عليه [٢].

(ب) أن يصرف همته إلى حفظ النكت التي تمر في كلام خصمه مما يبنى منها مقدماته ، وينتج منها نتائجه ، ويصحح ذلك في نفسه ، ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج إليه منه [٣].

(جـ) ألا يقبل قولا إلا بحجة ، ولا يرده إلا لعلة [٤].

(د) ألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله ، ولا يبادر بالجواب قبل تدبره ، واستعمال الروية فيه [٥].

(هـ) ألا يشغب إذا شاغبه خصمه ، ولا يرد عليه إذا أربى في كلامه ، بل يستعمل الهدوء والوقار ، ويقصد مع ذلك لوضع الحجة في موضعها ؛ فإن ذلك أغلظ على خصمه من السب [٦].

---

(١)المرجع السابق ص٢٣٦ -٢٣٩ .
(٢)المرجع نفسه ص٢٢٤ .
(٣)المرجع نفسه ص٢٤٠ .
(٤)المرجع نفسه ص ٢٣٧ .
(٥)المرجع السابق ص٢٤٠ .
(٦)المرجع نفسه ص ٢٣٩ .

(و) أن يخاطب الناس بما يعهدون ويفهمون ، فلا يخرج في خطابهم عما توجبه أوضاع الكلام [١].

٥- قول ابن وهب «إن الجدل إنما يقع في العلة» [٢]، مطابق لما تقول به النظرية الحجاجية المعاصرة . في هذه النظرية الكائنات البشرية صانعة علة Reason-Makers ومستخدمة علة Reason-Users . الوقوف على كيفية صناعة الناس العلل واستخدامها هو الوسيلة الضرورية لبيان عملية تطوير الدعاوى ومنح الموالاة . وإذا كانت العلة في جوهرها هي ما يقدم ردًا على السؤال «لماذا» ، فإن العلة المقنعة هي العلة في أن المستمع يمنح موالاته (٣).

أما حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) ، فإن أهم ما يمكن أن يستخرج من نظريته العامة في «التخييل والإقناع» موصولا بموضوعنا ، الأمران التاليان:

١- تمييزه بين جهتين للكلام .

٢- تمييزه بين طريقتين لإقناع الخصم .

في تمييزه بين جهتين للكلام يقول حازم: «لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب ، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص ، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال ...» [٤].

---

(١)المرجع نفسه ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٢)المرجع نفسه ص ٢٢٥ .

(٣) راجع في تفصيل ذلك:

Rieke – Sillars: Argumentation, op. cit., pp. 2-3.

(٤) القرطاجني (حازم): منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية ، تونس (١٩٩٦) ص ٦٣ .

لعل لفظ «الجهة» يعنى – في سياقه – طريقة إظهار الموضوع . ولعل تمييز حازم بين الإخبار والاقتصاص وبين الاحتجاج والاستدلال ، يعدل ما رأيناه في نظرية أنواع النصوص من تمييز بين النوعين السردي والحجاجي .

أما «التمويهات والاستدراجات» ، فهي من الاستراتيجيات الحجاجية المهمة . لم يكن حازم أول من فطن إلى الاستدراج . كان ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) قد سبق إلى استخراج هذه الاستراتيجية من النص القرآني . الاستدراج عند ابن الأثير «مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال» (١) . وهو عنده «استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم» (٢) .

إضافة حازم في ربطه التمويهات والاستدراجات بالطبع والحنكة معا من ناحية ، وفي تمييزه بين التمويهات والاستدراجات من ناحية أخرى . يقول حازم: «التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها» (٣) .

---

(١) ابن الأثير (ضياء الدين) :المثل السائر ، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانه ، دار النهضة مصر للطبع والنشر ، ط ٢ (٢١٩٧٣) ٢/ ٢٥٠ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٥٠ .

(٣) منهاج البلغاء ص٦٤ ومن طرق تحقيق التمويهات التي ذكرها حازم:

- طيّ محل الكذب من القياس عن السامع .
- اغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباهها بما يكون صادقا .
- ترتيب القياس على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه بالصحيح .
- بالأمرين الأخيرين معا .
- بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب بضروب من الإيداعات والتعجبيات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس (راجع في تفصيل ذلك: منهاج البلغاء ص ٦٤) .

وفي تمييزه بين هاتين الاستراتيجيتين يقول حازم: «التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال ، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله ، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه ، أو باطبائه إياه لنفسه ، وإحراجه على خصمه ، حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم ، وكلام خصمه غير مقبول» (١).

جدير بالإشارة هنا أن باسل حاتم كان قد وقف على استراتيجية في الحجاج المضاد Counter argumentation تعرف في التقليد البلاغي الغربي باسم «لعبة الولاء الكاذب Strawman Gambit» ؛ وذلك من خلال ما ذكره ابن وهب (وإن كان باسل حاتم قد نسب كلام ابن وهب خطأ إلى قدامة بن جعفر) في قوله: وحق الجدل أن تبنى مقدماته بما يوافق الخصم عليه ...» . يقول باسل حاتم: «لما كان قصد المجادل هو أن يقود خصمه إلى قبول الدليل المطروح ، فإن عرض الدليل الذي يؤخذ من قول الخصم نفسه سوف يصبح – على نحو مؤكد – الطريقة الأعظم تأثيرًا في إنجاز غايات المجادل ... يعني المؤلف بالإشارة أن ذكر كلام الخصم ، ليس يخلو جملة من دوافع خفية: فمنتج النص يذكر كلام خصمه على نحو لا يفضح اعتقاده الراسخ فضحا شديدًا ، حتى يجعل دفاع الخصم اللاحق عن موضوعه غير مؤثر . من ثمّ ، يعرض محتوى الاقتباس من قوله في جو من الرفض

(١) باسل حاتم: نموذج المجادلة من البلاغة العربية . بحث مترجم في: بحوث في تحليل الخطاب الإقناعي . اختيار وترجمة د. محمد العبد . دار الفكر العربي – القاهرة (١٤١٩هـ – ١٩٩٩م) ص ٣٩ – ٦٠ – ٤٧ وقارن الأصل في:

Hatim, Basil: Amodel of Argunentation from Arabic Rhetoric. Insights for a Theory of Text Types. British Society for Middle Eastern Studies. Bultin 17, 1:47 – 54, p. 49.

المراوغ ، حتى يفضح ثرثرته الفكرية» [(١)] .

٢- النصوص المختارة ومكونات البنية الحجاجية

تبنى الدراسة التطبيقية التالية على سبعة عشر نصا حجاجيا: خمسة نصوص قديمة والأخرى من العصر الحديث . تختلف هذه النصوص في موضوعات الحجاج: موضوعات اجتماعية ، ومكاتبات رسمية ، وموضوعات دينية ، وفكرية، وأدبية ، وسياسية . ومن تلك النصوص ما تمتزج فيها الموضوعات وتتداخل ، كالحجاج السياسي من منظورات دينية . أصحاب تلك النصوص مختلفون في أساليبهم ومشاربهم الثقافية ومنطلقاتهم الفكرية . يعطي ذلك كله فرصة أكبر لاستقاء معلومات أوفر عن تفاوت البنى الحجاجية بين تلك النصوص على نحو أو آخر ، كما يفسح المجال لاستكشاف الوسائل المختلفة التي توسلت بها للإقناع والاستمالة .

وفيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية:

١- من قصة الكندي: احتجاج الكندي لبخله (من قوله: تسمون من منع المال- إلى قوله: بجعل حظ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء فوق أصحابه) : (كتاب البخلاء للجاحظ ص ٧٨ – ٨١) :

الدعوى (مذكورة): المال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه ، وإنفاقه هو إتلافه .

شكل الحجاج:

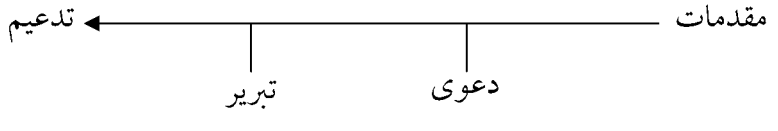

(١) Rieke – Sillars : op. cit. p. 97.

٢- ٤ : ثلاثة نصوص من رسائل إخوان الصفا:

النص٢: في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة (٤/ ٣٠-٣٤) .

الدعوى الرئيسية (مذكورة): جمع محمد ﷺ خصال النبوة وخصال الملك .

شكل الحجاج:

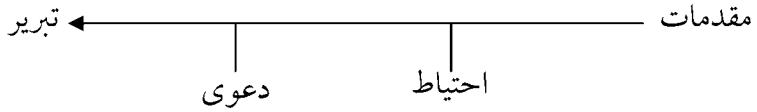

النص (٣) : بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة (٤/ ٣٤) .

الدعوى الرئيسية (مذكورة): هي الدعوى السابقة .

شكل الحجاج:

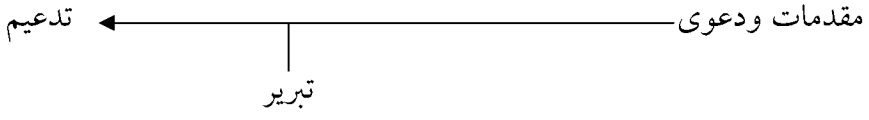

النص (٤): في مسألة الجبر (٤/ ٣٥-٣٦) .

الدعوى الرئيسية (مذكورة): ليس أحد من المخلوقين بقادر على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما أقدره الله عليه .

شكل الحجاج:

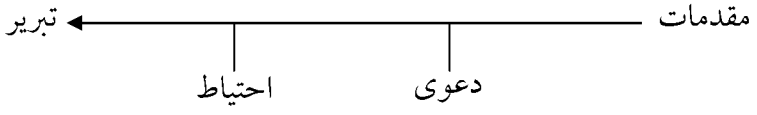

٥- كتاب الإخشيد إلى أرمانوس ملك الروم (جمهرة رسائل العرب ٤/ ٤١٤-٤٢٥) .

الدعوى (مضمنة): الإخشيد لا تقصر منزلته عن منزلة من يكاتبه: أرمانوس.

شكل الحجاج:

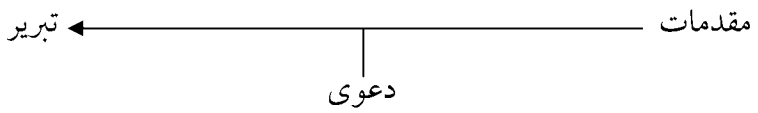

٦- ٧ : نصان لطه حسين من كتابه (حديث الأربعاء جـ ٣):

النص (٦): القديم والجديد (٣/ ٣١-٣٦) .

الدعوى (مذكورة): ليس للقديم أنصار ؛ أي أن أنصار القديم ليسوا مخلصين في نصرهم للقديم ، أو أنهم يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم ينصرونه .

شكل الحجاج:

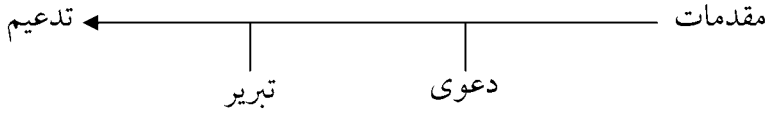

النص (٧): أحسن إليّ وأنا مولاك (٣/ ١٢٥-١٣٠) .

الدعوى (مذكورة): فلسفة الرافعي في الجمال والحب (في كتابه: «رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب») لا تفهم ولا تدل جملتها على شيء .

شكل الحجاج:

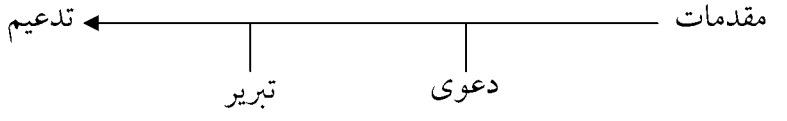

١- ٩ : نصان لعباس محمود العقاد من كتابه (الفصول) :

النص (٨): الغزل الطبيعي (ص٩٤-١٠١) .

الدعوى (مذكورة): العشق في طبيعته الأولى يعدي عن الرفق والسلامة .

شكل الحجاج:

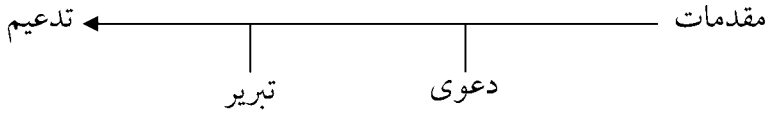

النص (٩): الأدب العصري (ص ١٠١-١٠٨) .

الدعوى (مذكورة): التقدم في الأدب تقدم في الإحساس بالأشياء على ما هي عليه .

شكل الحجاج:

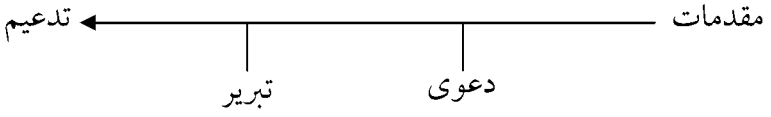

١٠- ١١ : نصان لإبراهيم عبد القادر المازني من كتابه (حصاد الهشيم):

النص (١٠): الأدب ينهض في عصور المشادة لا عصور اللين والأمن (ص٤٧-٥١) .

الدعوى (مضمنة): العنوان السابق هو الدعوى المضمنة والتي استخرجها الكاتب بنفسه عنوانا لمقاله .

شكل الحجاج:

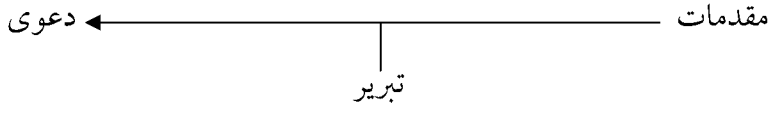

النص (١١): القدماء والمحدثون (٢٢٣- ٢٢٩) .

الدعوى (مضمنة) : القدماء يتميزون بالبساطة .

شكل الحجاج:

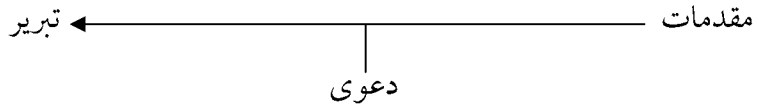

١٢- ١٣: نصان لخالد محمد خالد من كتابه (دفاع عن الديمقراطية) :

النص (١٢): تجربتنا مع الديمقراطية (ص ٣٠ -٤١).

الدعوى (مضمنة): كان للديمقراطية وجود في بلادنا قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م .

شكل الحجاج:

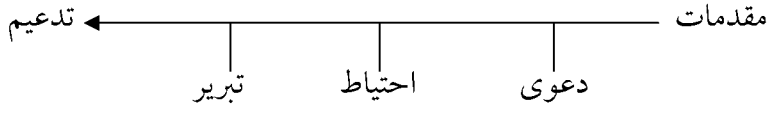

النص (١٣): قضية تتنظر الفهم الصحيح (ص١٧٥-١٨٩) .

الدعوى (مذكورة) الإسلام دين ودولة .

شكل الحجاج:

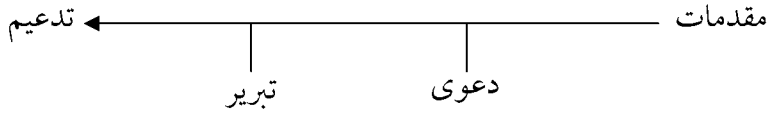

١٤-١٥: نصان لمحمد زكي عبد القادر من كتابه (الله في الإنسان):

النص (١٤): التعدد في حياة الإنسان (ص١١-١٥) .

الدعوى (مذكورة): حياة الإنسان عملية معقدة متعددة .

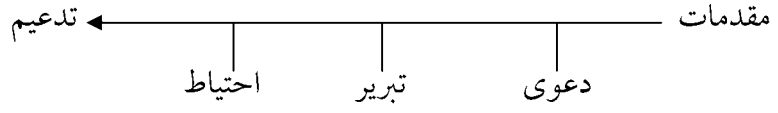

النص (١٥): من الألم ينبع كل شيء عظيم (ص١٤٨-١٥٣) .

الدعوى (مذكورة): من الألم ينبع كل شيء عظيم .

شكل الحجاج:

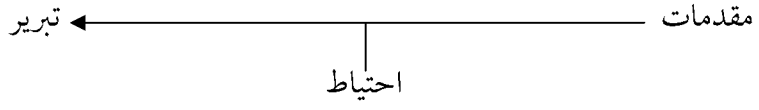

١٦- ١٧: نصان للدكتور مصطفى محمود:

النص (١٦): الحب القديم (من كتابه «الإسلام في خندق» ص٧-١٣) .

الدعوى (مذكورة) الدين – في حقيقته – هو الحب القديم الذي جئنا به إلى الدنيا .

شكل الحجاج:

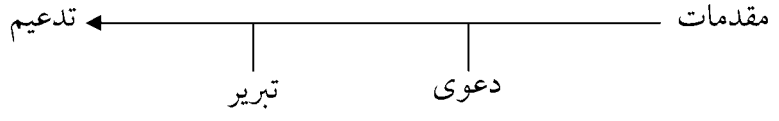

النص (١٧): أنشودة الأمل (من كتابه «كلمة السر» ص١٥-١٩) .

الدعوى (مذكورة): الدنيا لم تعد هي الدنيا ولا الناس هم الناس .

شكل الحجاج:

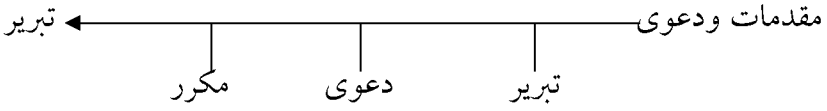

تأمل النصوص المختارة وأشكالها الحجاجية يتيح لنا استنتاج ما يلي:

١- الشكل الأشيع للنص الحجاجي العربي المكتوب هو النص الذي يبدأ بالمقدمات فالدعوى فالتبرير . وربما اقتصر النص على ذلك كما رأينا في النص الخامس . ولكنه في أكثر الحالات يتجاوز تلك العناصر الثلاثة إلى التدعيم . وفي حالات غير قليلة يتجاوزها إلى الاحتياط والتدعيم جميعا.

٢- المألوف أن يبدأ النص الحجاجي بالمقدمات ، ولكن يندر جدًا أن تشغل الدعوى الموقع المألوف للمقدمات ، وهذا ما لم نره إلا في نصين اثنين: أحدهما قديم لإخوان الصفا (النص ٣) ، والآخر معاصر لمصطفى محمود (النص ١٧) .

٣- الشكل الحجاجي الأشيع في النص العربي هو الشكل التالي:

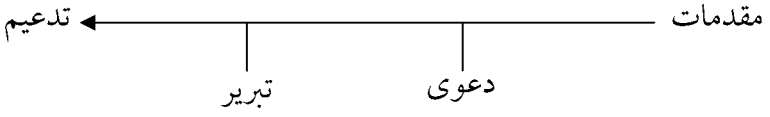

وهو شكل يتسم بالمنطقية التي تعد أسّ الحركة الحجاجية المتنامية مترابطة العناصر . ترتبط الدعوى منطقيا بالمقدمات . ويحرص الكاتب لجعل خطابه مقنعا ومستميلا على التبرير والتعليل . ويستخدم دعامات لا يخفى ثراؤها .

٤- ربما اتخذت الدعوى في النصوص الحجاجية المعاصرة عنوانا للنص . يعكس هذا – على الأقل – وعي الكاتب القوي بقضيته التي يدافع عنها .

٥- ربما ضمنت الدعوى ، ولكنها تذكر في أكثر الأحيان في هيئة منطوق واحد أو أكثر .

٦- يبنى النص الحجاجي عادة على دعوى رئيسية واحدة ، سواء أكانت مذكورة أم مضمنة ، ويلاحظ هنا أن الكاتب يعبر أحيانًا عن هذه الدعوى الواحدة في أكثر من موضع مع النص . هذا ما نجده مثلا في النص ١٧ (أنشودة الأمل للدكتور مصطفى محمود) . في هذا النص ذكرت الدعوى في أوله: «الدنيا لم تعد هي الدنيا ولا الناس هم الناس» . (كلمة السر ص١٥)، ثم ذكرت مرة أخرى بعد التبرير في تغيير صياغى طفيف: «إن الدنيا لم تعد هي الدنيا ، والناس ما عادوا هم الناس الذين نعرفهم» (كلمة السر ص١٦) .

٧- في أكثر الحالات يلحق الكاتب تبريره بالتدعيم ، والتدعيم – في أكثر الحالات – أدلة منطقية وشواهد وأمثال تدعم صحة الدعوى . الدعوى نتيجة الحجاج . هي المقولة التي تقدم لاستمالة الآخرين . قد تذكر وقد تضمن . هي مقولة شاملة أحيانا ، وتكيف درجة عمومها أحيانًا أخرى . من عبارات التكييف : من الممكن ، من المؤكد ... إلخ . في حالات غير قليلة ، يدخل الاحتياط إلى الحجاج ، حتى يكون أساسًا للقول بمقبولية الدعوى أو عدم مقبوليتها . والتبرير إبانة عن المبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى في علاقتها بالمقدمات . ويدعم التبرير الدعامة (أو التدعيم) . والتدعيم كل مادة يقدمها المجادل ليزيد من تصديق المخاطب لمقدماته وتبريره؛ ومن ذلك – كما أشرت – الأدلة المنطقية ، والشواهد الخاصة ،

والإحصاءات ... إلخ . وغنى عن البيان أن مقدمات الحجاج مكون أساسي، من حيث إنها تقريرات عن أناس ، أو أحوال ، أو أفعال . وينبغي لها أن تصلح لبلوغ الدعوى .

٨- قد تتفرع عن الدعوى الرئيسة دعوى ثانوية . في النص ١٥ («من الألم ينبع كل شيء عظيم» لمحمد زكي عبد القادر) تفرعت عن الدعوى الرئيسة دعوى أخرى ثانوية هي قول الكاتب: «للألم إذن في حياتنا معنى وقيمة» (ص١٥٢). وهي دعوى ثانوية لسببين:

(أحدهما) أن التبرير في النصر ينصرف إلى الدعوى الرئيسة .

و(الآخر) أن محور الدعوى الثانوية هو نفسه محور الدعوى الرئيسة ، وهو «قيمة الألم» . لو لم تكن الدعوى الرئيسة» : «من الألم ينبع كل شيء عظيم» ، ما كانت الدعوى الثانوية: «للألم في حياتنا معنى وقيمة» .

٩- إثبات الكاتب صحة رأيه أو معتقده بإزاء رأي الآخر أو معتقده وسيلته التدعيم . وللتدعيم وجوه ثلاثة: التدعيم بالدليل Evidence ، والتدعيم بالقيمة Value ، والتدعيم بالمصداقية Credibility .

(أولا) التدعيم بالدليل: موقف الحجاج الأبسط والأشيع هو – كما يذكر ريك وسيلارز – تقديم إفادة Statement تحظى بموالاة المخاطب . وربما طوّر المخاطب الحجاج بسؤال أو بدعوى مضادة:

* المتكلم: لا تخف هنا على سيارتك !

المخاطب : ولماذا ؟

* المتكلم : الجو حار اليوم !

المخاطب : لكنه ليس حارًا كالأمس [(١)].

ولكن الكاتب يطور حجاجه بإضافة مادة مدعمة لدعواه على نحو يجعل القارئ مواليا لتلك الدعوى ، وهو ما يسمى بالدليل .

في النص الحجاجي العربي ، نرى للمادة المدعمة أو الديل أنماطًا شتى ، من أهمها:

(أ) أدلة تاريخية: وهي من التاريخ الأدبي في حجاج أدبي المحور (كما نرى في نصي المازني) .

(ب) شواهد خاصة: وذلك كأحدوثة «الخرسوس» التي يرويها طه حسين (في مقاله: القديم والجديد ص ٣٢) عن الشيخ المهدي ، وكان يخاطب بائع الشراب بما لا يفهمه . أراد طه حسين الاستدلال بهذه الأحدوثة على ما يقع فيه بعض أنصار القديم من تكلف لغة لا تناسب عصرهم .

(جـ) وهناك نوع خاص من الشواهد الخاصة ، يسميه ريك وسيلارز باسم «المثال الافتراضي أو النظري hypothetical example» ، وهو الذي يستخدم عندما لا تصلح الأمثلة الحقيقية real examples» [(٢)].

لعل من هذا النوع ما نجده عند طه حسين بخاصة . وأسوق نموذجا على ذلك قوله في سياق تمييزه للرافعي بين النقد والثناء الخالص: «كن عاقلا ، واعلم أن الثناء الخالص الذي لا يشوبه النقد ، إنما هو كالماء أذيب فيه كثير من السكر ، وتوشك إن أسرفت في شربه أن يأخذك الغثيان . وخير لك وأصلح لصحتك أن

---

(١) Rieke Sillers, op. Cit. P.97 .

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ .

تضيف إلى هذا الماء والسكر عنصرًا ثالثًا يحول بينك وبين القيء . فما كان لك ولا للناس نفع قليل أو كثير في أن تقيء لهم من حين إلى حين رسائل أحزان أو شيئًا يشبه رسائل أحزان» [(١)].

ويعي كاتب الحجاج أثر الشواهد والأقيسة وضرب الأمثال في دعم دعواه . وهو يعبر عن ذلك تعبيرًا في حالات غير قليلة . من النصوص المختارة ما نرى فيها ذلك ؛ كقول إخوان الصفا: «وعلى هذا القياس ...» [(٢)]، أو «وعلى هذا المثال ...» [(٣)]. ومن ذلك أيضًا قول المازني: «والآن ، فلنسق لك الأمثال لتوضيح ما نعني» [(٤)].

جدير بالإشارة أن بعض القدماء قد التفتوا إلى علاقة المثل بالحجاج ، ومنهم ابن وهب . يقول ابن وهب عن ضرب الحكماء والعلماء والأدباء للأمثال: «وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها ، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها» [(٥)]. ويقول: «المثل مقرون بالحجة» [(٦)]. ويشرح مقولته هكذا: «ألا ترى أن الله – عز وجل – لو قال لعباده: «إني لا أشرك أحدا من خلائقي في ملكي ، لكان ذلك قولا محتاجا إلى أن يدل على العلة فيه ، ووجه الحكمة في

(١)طه حسين: مقال «أحسن إليّ وأنا مولاك» ، من كتاب: حديث الأربعاء ، دارالمعارف بمصر، الطبعة ١٢ (١٩٨٩) ٣/ ١٢٩ .

(٢)إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا ، عنى بتصحيحه خير الدين الزركلي ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (١٣٤٧هـ – ١٩٢٨م) ٤/ ٣٦ .

(٣) المرجع السابق ٤/ ٦٤ .

(٤)إبراهيم عبد القادر المازني: القدماء والمحدثون ، من كتاب حصاد الهشيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٩م) ص ٢٢ .

(٥) البرهان في وجوه البيان ، مرجع سابق ص١٦ .

(٦)المرجع السابق ١٤٦ .

استعماله ، فلما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه ؛ لأنهم عالمون بأنهم لا يقرون أحدا من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم ، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه ، فالله – عز وجل – أولى بأن يتعالى عن ذلك» (١).

(ب) التدعيم بالقيمة: والقيمة مفهوم يستخرج مما يقوله الناس ، ومما يفعلونه، ومما تبنيه المجادلات . في ضوء دراسة ريك وسيلازر للتدعيم بالقيمة ، يمكن أن نرى الملامح التالية للتدعيم بالقيمة في الخطاب الحجاجي العربي:

(أولا) القيمة معيار للقول بالجودة أو الرداءة . قد تذكر القيمة ، وقد تضمن ، ولكن تضمينها يقع في حالات كثيرة جدًا:

- من تضمين القيمة عند تدعيم التعليل ، ما نراه في غير موضع من نصوص طه حسين بخاصة ، كقوله: «وما رأيك في رجل يفلسف في الجمال والحب ؛ أي يضع نفسه بين الفلاسفة ، بل بين كبار الفلاسفة ، فلم يفلسف منهم في الجمال والحب إلا قليل ، ثم لا تمنعه فلسفته أن يكون طفلاً ، فيتحداني ويطلب إليّ أن أكتب كتابا ككتابه ، أو كفصل من كتابه ، أستغفر الله» (٢).

يعول الكاتب في تدعيمه هنا على قيمة صدق الكاتب / الإنسان مع نفسه في الفعل ، وهو يعتمد على قدرة المخاطب على تعيين هذه القيمة المضمّنة من

(١)المرجع نفسه ص١٤٦ .

(٢) طه حسين: مقال: أحسن إليّ ، من كتابه : حديث الأربعاء .٣/ ١٢٧ .

خلال سياق الحجاج السابق .

- ومن التصريح بالقيمة قول خالد محمد خالد: «ولا جدال في أن قضايا السياسة ومشكلاتها ومتطلباتها في الذروة من دواعي الاهتمام وحوافز المشاركة . فأي مسلم يعطي لهذه الاهتمامات ولتلك المشاركة ظهره يكون قد حق عليه قول الرسول الكريم «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» [(١)] .

القيمة المصرح بها هنا هي قيمة اهتمام المسلم الحقيقي بقضايا السياسة ، وهي وسيلة الكاتب في تدعيم تبريره دعوى كون السياسة في الإسلام عبادة .

(ثانيًا): تحدد النظرية الحجاجية المعاصرة للقيمة نمطين اثنين: القيمة الوسيلة instrumental value والقيمة الغاية terminal value . الأولى تضع إفادة عما هو ذو قيمة . والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتغياه المتكلم [(٢)] .

يبدو من تأمل عينات الدراسة أن خطاب الحجاج العربي يميل إلى القيمة الغاية ميلا أقوى . وهذا أمر مهم ؛ وذاك أن القيمة الغاية أقوى تأثيرًا في الحصول على مستوى من الموالاة adherence يجعل المستقبلين يغيرون من سلوكهم .

من النمط الأول قول العقاد: «ونعتقد أنه ليس أعون لنا على فهم طبيعة العشق الصادق من الالتفات إلى نقطة واحدة: وهي علة استئثار الرجل بالغزل دون المرأة» [(٣)] . ومن النمط الثاني قوله: «وإنما الحري بأن يدعي تقدما مثمرا

---

(١) خالد محمد خالد: مقال: قضية تنتظر الفهم الصحيح ، من كتابه: دفاع عن الديمقراضية، دار ثابت ، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ -١٩٨٥) ص١٧٨ .

(٢) Rieke / Sillars, p. 121.

(٣) عباس محمود العقاد: الغزل الطبيعي ، من كتابه: الفصول ، دار المعارف بمصر (١٩٨٦م) ص٩٤ .

التقدم في الإحساس بالأشياء على ما هي عليه» [(١)].

(ثالثًا) يعتمد خطاب الحجاج العربي في تدعيم التبرير اعتمادًا جوهريا على القيم التي يكون تمسك الناس بها قويا أو التي تتسم بالشمولية بسبب موالاة كثير من الناس لها . مثال ذلك «قيمة التغير» التي اعتمد عليها طه حسين في رأيه في قضية «القديم والجديد» ، أو «قيمة الجمع في الإسلام بين الدين والدولة» التي اعتمد عليها خالد محمد خالد في دفاعه عن الديمقراطية ، وهي قيمة تكسب موالاة نسبة كبرى من الناس أو «قيمة الحب» التي اعتمد عليها مصطفى محمود في الكشف عن المفهوم الحقيقي – من وجهة نظره – للدين .

القوة والشمولية من العوامل المساعدة على تعيين القيم السائدة في حضارة أو مجتمع . في خطاب الحجاج العربي ، نرى عاملا آخر مهما ؛ هو منزلة الأشخاص الذين يدعمون هذه القيمة أو تلك . إن اقتناع القارئ وإعطاؤه موالاته لمثل قول مصطفى محمود: «وأرى أننا مطالبون اليوم أكثر من أي يوم مضى بالعودة إلى روح الإسلام وإلى نبعه الشامل ... إلى فضائل الحب والرحمة والمودة والتقوى وسعة الصدر مع الخصوم ...» [(٢)]، الاقتناع والموالاة اللذان يعتمدان على منزلة الشخصية التي تدعم قيمة ما تطالب به الناس ، وأنها صادقة في مطالبتها ، وأنها بريئة فيما تطالب به من أي نفع أو مصلحة خاصة .

(جـ) التدعيم بالمصداقية: والمصداقية عامل مهم في الحجاج . في ضوء تحديد ريك وسيلارز لأنواع المصداقية [(٣)]، يمكننا أن نستنبط من نصوصنا الحجاجية المختارة ما يلي:

---

(١) المرجع السابق ، مقال: الأدب العصري ص١٠٤ .

(٢) مصطفى محمود: مقال : الحب القديم ، من كتاب: الإسلام في خندق ، كتاب اليوم – دار أخبار اليوم ، الطبعة ٦ (١٩٩٤م) ص٩ .

(٣) راجع في تفصيل ذلك : Rieke / sillars, pp. 154-156.

(أولا) قلما يلجأ الكاتب إلى المصداقية المباشرة؛ وذلك أنه قلما يقدم عن نفسه إفادات مباشرة قصد زيادة قابليته للتصديق ، إنما يصرف همه – في المقام الأول – إلى التماس العلل المقنعة . كان أكثر كتاب عينات الدراسة اعتمادًا على المصداقية المباشرة طه حسين وخالد محمد خالد . يؤكد طه حسين للرافعي نزاهته في نقده قائلاً: «ولقد نقدت الناس من قبل الرافعي فلم أصانعهم ولم أرفق بهم»(١) .

ويقول خالد محمد خالد في سياق احتجاجه لحاجتنا إلى الديمقراطية وترحيب الإسلام بها: «واعلموا يا من تطالعون هذه السطور أنى – والحمد لله – في هذه القضية بالذات برئ الصدر من الغرض ، فلا أنا صاحب حزب ، ولا عضو في حزب ، وليس في نيتي أن أكون كذلك .. ثم إني وإن مارست السياسة «فكرًا» فإني لا أمارسها «عملا» ، ومن ثم فلا مطمح لي مهما ضؤل في أن أكون عضوا في برلمان ، ولا عضوا في وزارة ، ولا رجلا من رجال السياسة ، ولا الهواة منهم ولا المحترفين»(٢) .

(ثانيًا) اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية الثانوية (وهي التي تتأتى من ربط مصداقية شخص آخر بالحجاج) أقوى كثيرًا جدًا من اعتماده على المصداقية المباشرة . ربما يرجع هذا إلى أن كاتب الحجاج العربي يتجانف عن أن يقدم عن نفسه إفادات تاركا ذلك لنص الخطاب وفهم المخاطب .

أما مصداقية الآخر هنا فجلّها للرسول في حديثه ، أو الحكماء في أقوالهم (مثل هذا الذي روى عنه محمد زكي عبد القادر أنه لما سئل: من معلمك في

(١)أحسن إليّ وأنا مولاك ، من حديث الأربعاء ٣/ ١٢٨ .

(٢) قضية تنتظر الفهم الصحيح ، من كتابه: دفاع عن الديمقراضية ص١٧٦ .

الحياة؟ فقال: الألم»[(١)]، أو ذوى الخبرة في شأن ؛ كالكندي في شأن البخل والحرص على المال ، حينما استدل إسماعيل بن غزوان بكلامه على حكمته وحضور حجته [(٢)].

(ثالثًا) من الطبيعي أن يكون اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية المباشرة أقوى من الاعتماد على النوعين السابقين جميعا ؛ وذلك أن المصداقية المباشرة تصدر عن تطوير المتكلم حجاجه بطريقة ما تجعله قابلا لأن يصدق . الكاتب هنا صاحب الحجاج ، وهو الذي يطوره بكلام له هو في الأساس .

(رابعًا) ومما يؤثر في مصداقية الخطاب ما يعرفه المستقبل عن مصدره . يميل الناس إلى تصديق من يرونهم أكفاء وأمناء . في ضوء خلاصة بحث المصداقية في النظرية الحجاجية المعاصرة التي قدمها ريك وسيلارز في أربع عشرة مسألة ، يمكن أن نستنبط من نصوص الدراسة ما يلي:

١- يتمتع أصحاب تلك النصوص جميعًا بكفاءة حجاجية في صناعة العلل وبأمانة في عرض موضوع الحجاج .

٢- أصحاب تلك النصوص جميعا من الرجال . ويلاحظ أن قابلية تصديق الرجال أقوى من قابلية تصديق النساء . يستثنى من هذا بالطبع أن تكون المرأة جذابة جسديا وعقليا .

٣- سمعة أصحاب تلك النصوص مناسبة لطبيعة خطابهم الحجاجي ، فكل

---

(١) محمد زكي عبد القادر : مقال: من الألم ينبع كل شيء عظيم ، من كتابه: الله في الإنسان ، كتاب اليوم – دار أخبار اليوم (١٩٩٢م) ص١٥٢ .

(٢) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البخلاء ، حقق نصه وعلق عليه طه الحاجري ، دار الكاتب المصري – القاهرة (١٩٤٨م) ص ٧٨ .

منهم من أهل الاختصاص في مجال حجاجه الموضوعي .

٤- للإفادات التي قدمها بعضهم عن ذاته ، على نحو ما رأينا عند طه حسين وخالد محمد خالد ، أثر في زيادة قابلية تصديقهم .

٥- لا يستطيع مستقبلو تلك النصوص الحكم على سلامة نية أصحابها ، ولكن نسيج النصوص اللغوي وسياقاتها التاريخية والحضارية تبرهن على سلامة نية أصحابها ؛ فالغاية تعيين الحقيقة – على حسب ما يرونه – أكثر من إحراز نصر على خصم أو معارض .

٦- لا شك أن أصحاب تلك النصوص يستندون في مصداقيتهم إلى التحقق – إلى حد ما – من كنه قيم قرائهم أو مستمعيهم أو طائفة منهم على الأقل .

٧- مصادر التدليل الأقوى سلطة تزيد من المصداقية . نرى ذلك مثلا في المقارنة بين النص القرآني والمثل .

٨- جودة تنظيم الخطاب تزيد من المصداقية . وهذه السمة مشتركة بين جميع عينات الدراسة ، على تفاوت فيما بينها . وهو تفاوت يبدو مثلا من مقارنة نص رسالة الإخشيد بنص لمصطفى محمود .

٩- يبدو أن تدفق العبارة في نصوص مصطفى محمود مثلا ، وإخراجها في هيئة صرخات عالية متعاقبة خالية من التكلف أو تأنق في نظام السبك ، تزيد – فيما نرى – من مصداقيته .

١٠- وتشترك نصوص الدراسة في سمة أخرى ، هي أنها تبنى جميعا على لغة غير متعنتة ، ولا يظهر فيها تشبث المتكلم برأيه ، مما يزيد من مصداقيتها وحركيتها . وتنأى وفرة أساليب القصر ودوال الاعتقاد في نصوص كاتب

كالعقاد ، تنأى – فيما أحسب – عن أن تكون مظهرا لتعنت أو تشبث بالرأي ؛ وذلك أنها – بالأحرى – سمة أسلوبية تسمح بها العربية آلية للتعبير عن وثوق المتكلم بمعتقده قبل مستمعيه .

٣- وسائل الإقناع

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من وسائل الإقناع في النص الحجاجي العربي، وهي: الوسائل المنطقية – الدلالية ، والوسائل اللغوية ، والوسائل الموقفية . التفاعل بين تلك الوسائل جميعًا وأنماطها المختلفة في أداء الوظيفة الإقناعية هو الأمر الطبيعي . وليست معالجة كل نوع منها على حده إلا قصدا إلى بيان صوره وهيئاته البنائية والدور الخاص الذي يشغله في تلك الوظيفة العامة . ونظرا لارتباط الوسائل الموقفية بالخطاب المنطوق في المقام الأول ، فسوف نعني بالنوعين الأولين فقط .

(أ) الوسائل المنطقية – الدلالية:

العلاقات النصية التي يقيمها سياق النص الحجاجي – من خلال عرضه على مفهوم النص العام – هي علاقات الدعوى أو النتيجة . ويشترط – من المنظور الدلالي – أن يرتبط محتوى النتيجة بمحتوى المقدمات [١] . ويمكن أن نميز في النص الحجاجي العربي بين الوسائل المنطقية – الدلالية التالية:

أ/ ١ القياس المنطقي

القياس المنطقي بنية أساسية في كل خطاب حجاجي ، ومن ثم يعيره

(١) schnelle, Helmut: Zur Explikation des Begriffs "Argumentativer Text" . In: Linguistische Probleme der Textanalyse. Schwann. 1. Auflage (1975) SS . 4-47, S.67

الباحثون الاهتمام الأكبر . في البيان الأول من برهان ابن وهب ، وهو الاعتبار ، يذكر القياس . القياس في اللغة : التمثيل والتشبيه . ولا يجب القياس إلا عن قول متقدم ، فيكون القياس نتيجة ذلك . ربما كان هذا القول في اللسان العربي مقدمة أو مقدمتين أو أكثر على قدر ما يتجه من أفهام المخاطب . ولا يجب قياس عند المناطقة إلا عن مقدمتين ، لإحداهما بالأخرى «تعلق»[(١)] .

ويرى إخوان الصفا أن وضع العقلاء للقياسات يصير داعيا إلى طلب الحجة عند خصمائه ، ويكون سببا لغوص النفوس في طلب المعاني الدقيقة ووضع القياسات واستخراج النتائج ، ويكون سببا ليقظة النفوس ، وانتباهها لها من السهو[(٢)] .

أهم ما في كلام ابن وهب إشارته إلى التعلق بين المقدمتين في القياس ، وارتباط عدد المقدمات بقدر ما يتجه من أفهام المخاطب . أما أهم ما في كلام إخوان الصفا ، فهو أثر القياس في النفوس وانتباهها . المخاطب مؤثر في بنية القياس ومتأثر به في آن معا . التعلق بين المقدمات للوصول إلى نتائج والتركيز على المخاطب أو المستمع هما الأمران الأهم في مبحث القياس المنطقي في النظرية الحجاجية المعاصرة ؛ فالقياس المنطقي Syllogism وسيلة منطقية من وسائل التعليق بين الأقوال Statements . في القياس المنطقي يصبح أحد القولين مرتبطا بالآخر عن طريق تعليقهما بقول ثالث يمثل طبقة من الموضوعات أو المفاهيم أعلى من القولين الآخرين . وما ينتج عن ذلك هو «المعادل الحجاجي argumentative

(١)البرهان ، مرجع سابقة ص٧٦ – ٧٨ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ، مرجع سابق ٤/ ٢٨ .

equivalent لما يسمى ب «الاستدلال deduction» عند المناطقة [(١)].

يفهم القياس المنطقي فهما أفضل في ضوء تأمل كيفية فهم عالم المنطق له. القياس المنطقي التقليدي هكذا :

كل الناس فانون

سقراط إنسان

سقراط فان

لهذه البنية ثلاثة أقوال : الأول المقدمة المنطقية الكبرى Major Premise والثاني المقدمة المنطقية الصغرى minor premise والثالث النتيجةconclusion. ليس المعوّل عليه العدد ؛ فلابد لبناء قياس منطقي من وجود تعلق دلالي منطقي بين الأقوال الثلاثة ، وذلك بأن تكون المقدمة الصغرى منضوية تحت الطبقة أو المفهوم الذي تقدمه المقدمة الكبرى ، وهو ما يتضح من القياس التقليدي السابق.

وظيفة القياس المنطقي في الخطاب الحجاجي هي الانتقال مما هو مسلم به عند المخاطب ـ أي المقدمة الكبرى ـ إلى ما هو مشكل ؛ أي إلى النتيجة .

يقول وليم برانت : «إذا لم يقبل المخاطب المقدمة الكبرى كان الحجاج – إذ ذاك – سدى » [(٢)].

يدلنا فحص عينات الدراسة على أن القياس المنطقي من البني المنطقية – الدلالية المهمة في النص الحجاجي العربي ، ولعله الأهم على الإطلاق .

---

(١) راجع في تفصيل ذلك :

Brandt, William: The Rhetoric of Argumentation, op. cit. p.24.

(٢)المرجع السابق ص٣٣ .

من أمثلة القياس المنطقي في تلك العينات ما يلي :

* يقول الكندي في سياق احتجاجه لبخله : « فالمال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه ، وإنفاقه هو إتلافه ، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب»(١) .

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى) : الحسرة لمن أتلف المال .

(المقدمة الصغرى): إنفاق المال هو إتلافه .

(النتيجة) :الحسرة لمن أنفق المال .

* ويقول إخوان الصفا في سياق الاحتجاج للعلاقة بين خصال النبوة والإمامة والملك: «والكلام في خصال الإمامة ... قبل معرفة خصال النبوة ... وقبل معرفة خصال الملك وشرائطه والفرق بينهما كلام على غير أصله . وكل كلام على غير أصل هذيان لاتحقيق له»(٢) .

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): كل كلام على غير أصل هذيان .

(المقدمة الصغرى): الكلام في خصال الإمامة قبل ... كلام على غير أصله .

(النتيجة): الكلام في خصال الإمامة قبل ... هذيان .

في النص الحجاجي المعاصر يعتمد الكاتب على القياس المنطقي أحيانًا ، لا سيما طه حسين . من نماذجه عند طه حسين قوله عن أنصار القديم: «وإذا فهم

(١) البخلاء ص ٧٨ .

(٢)رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣١ .

بين اثنين: أن يكونوا صادقين حين يبكون القديم ويحرصون عليه ، فهم يحيون حياتهم كارهين ويأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأى . فإن كانوا كذلك فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق . وكيف لا ترحم من يحيا راغما ويلذ راغما ويألم راغما !» [(١)] .

يمكن اختزال القضايا في القطعة السابقة إلى الشكل التالي:

(المقدمة الكبرى): من يحيا حياته كارها خليق بالرحمة .

(المقدمة الصغرى): أنصار القديم (صادقين) يحيون حياتهم كارهين .

(النتيجة): أنصار القديم خليقون بالرحمة .

بدهي أن كاتب الحجاج لا يعرض أقواله دائمًا في الصياغة والترتيب المباشرين كالنموذج القياسي التقليدي ، بل كثيرًا ما يخالف في الترتيب ويزيد في العبارة بأحد الأقوال وربما توزعت أقوال القياس على مساحات شتى من النص . ولكن القارئ الذي ينبغي له أن يبذل مع النص الحجاجي جهدا خاصا ، لن يعسر عليه معرفة الصلات بين تلك الأقوال وإن تناءت . من ذلك مثلا ما وقع في نص للمازني ، وهو مقاله «القدماء والمحدثون» . الجملة الأولى من الفقرة الأولى من النص هي: «البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس والنظر» [(٢)] .

والجملة الأولى من الفقرة الثالثة هي قوله: «كذلك عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة» [(٣)] . العلاقة بين الجملتين تقدم لنا القياس المنطقي التالي:

---

(١) من مقال:القديم والجديد ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ٣١ .

(٢) مقال «القدماء والمحدثون» من كتابه : حصاد الهشيم ص ٢٢٣ .

(٣)المرجع السابقة ص٢٢٣ .

(المقدمة الكبرى): البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس والنظر .

(المقدمة الصغرى) : عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة .

(النتيجة) : عظماء الدنيا يمتازون بمظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس والنظر .

أ/ ٢ القياس المضمر

القياس المضمر Enthymeme أحد أنواع القياس المنطقي . معيار القياس المضمر أنه قياس محذوف المقدمة ، وهي عادة المقدمة الكبرى [(١)] . عندما نقول: «الوطن جدير بالولاء لأنه يساعد على تربية المرء» ، سوف يستلزم القياس المنطقي الكلي القياس المضمر التالي:

(المقدمة الكبرى): [مضمرة] : كل شيء يساعد على تربية المرء جدير بالولاء .

(المقدمة الصغرى): [مذكورة] : وطن المرء يساعد على تربيته .

(النتيجة): وطن المرء جدير بالولاء .

غني عن البيان أن المقدمة المحذوفة سوف تبنى على القولين الآخرين وقد وصل أحدهما بالآخر على نحو مناسب .

من أمثلة القياس المضمر قول طه حسين في سياق احتجاجه لرأيه في الرافعي رمزًا لأنصار القديم: «فإذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين

---

(١) Brandt, William: The rhetoric of Argumentation, P.32. وراجع في شرح العلاقة بين الأقوال في القياس المضمر: المرجع السابق ص ٣٢ – ٣٣ .

يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهي أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ، ومن هنا فهمنا القدماء»[(١)] .

يمكن عرض القياس المضمر في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): [مضمرة] : يفهم الكاتب حين يكون صادقا فيما يكتب .

(المقدمة الصغرى): [مذكورة] : كان القدماء صادقين حين يكتبون .

(النتيجة): [مذكورة] : ومن هنا فهمنا القدماء .

أشير هنا إلى دور الاستنباط في القياس المضمر ، حين يمتد الكلام شيئًا ولا يكون سبيل تقدير الطبقة الكبرى في المقدمة الكبرى إلا بالاستنباط . من ذلك ما نجده في قوله طه حسين عن الرافعي أيضًا من النص السابق نفسه: «ستضحك حين تقرأ هذا الفصل ، فترى الرافعي قد انتهى به الغرور والعجب إلى حيث خيل إليه أنه أغضبني ، وأني كنت أسمع كلامه فتبتلعني ثيابي ، وأني اقتلعت نفسي من المجلس اقتلاعا ، بل فررت منه مرتين: تركته عند «عزمي» وفررت إلى «هيكل» فتبعني ، فتركت له «السياسة» كلها . وأخطأ حين فسر هذا الاقتلاع بأنه أثر الخوف أو ما يشبهه . ولو فسره بشيء آخر يشبه استثقال الظل واستبطاء الحركة لوفق لبعض الصواب . وأخطأ حين قرر أن ثيابي كانت تبتلعني ، ومم تبتلعني ثيابي؟! .

لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أني من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم وصبروا لهم واحتملوا منهم شرا كثيرًا لا ضجرين ولا متحرجين ولا مستخفين في ثيابهم»[(٢)] .

---

(١) مقال: أحسن إليّ وأنا مولاك ، من كتابه: حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص١٢٧ .

يمكن تصوير القياس المضمر في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): [مضمرة] : السفهاء من فسروا اقتلاعي من المجلس بأنه أثر الخوف .

(المقدمة الصغرى): [مذكورة] : فسرّ الرافعي اقتلاعي من المجلس بأنه أثر الخوف .

(النتيجة): [مضمرة] : الرافعي سفيه (أو أحد هؤلاء السفهاء) .

يبدو القياس المضمر في مثل هذه الحال آلية منطقية للوصول إلى نتيجة أو غرض يشبه ما يسمى بالتعريض للبقيا . والتعريض للبقيا آلية في الخطاب يمثل لها القدماء بتعريض الله بأوصاف المنافقين وإمساكه تسميتهم إبقاء عليهم وتألفا لهم (١) .

يستوجب القياس المضمر حضورا يقظا للقارئ مع النص ، يستنبط له من سياق الحجاج مقدمته المحذوفة . نضرب مثالا آخر على ذلك قول المازني: «المذهب القديم لا يعول على حجة ولا يستند إلى عقل ؛ فكان وما يزال حسبه من المقاومة الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس وعلى اعتياد الجماهير الطريقة القديمة» (٢) .

يمكن تصوير القياس المضمر في هذه القطعة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): [مضمرة] : الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس ... ليس حجة ولا يستند إلى عقل .

---

(١)البرهان في وجه البيان ص١٣٤ .

(٢) من مقال : الأدب ينهض في عصور المشادة ، من كتابه: حصاد الهشيم ص٤٨ .

(المقدمة الصغرى): [مذكورة] : المذهب القديم يعتمد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس .

(النتيجة): [مذكورة] : المذهب القديم لا يعول على حجة ولا يستند إلى عقل .

يتضح مما سبق وفرة إضمار المقدمة الكبرى ، حتى صار ذلك معيار القياس المضمر المألوف . ولكن قد تضمر المقدمة الصغرى . نضرب مثالا على ذلك من عينات الدراسة قول طه حسين في سياق احتجاجه لرأيه في العلاقة بين «القديم والجديد»: «نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد . وهل من سبيل إلى أن نفرغ من مثل هذه المسألة ؟ فقد رأينا في فصل مضى أنها مسألة تلازم الأمم الحية ، وتلازمها لأنها حية ؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطورًا وكان التطور بطبيعته انتقالا من حال إلى حال»(١) .

ينبغي للقياس المضمر فيما سبق أن يبدو على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): [مذكورة] : القديم والجديد مسألة تلازم الأمم الحية .

(المقدمة الصغرى): [مضمرة] : مصر أمة حية .

(النتيجة): [مضمرة] القديم والجديد مسألة تلازم مصر .

في القياس المنطقي لابد من قبول المخاطب للمقدمة الكبرى وإلا كان الحجاج عبثا ، وفي القياس المضمر يسلم المخاطب جدلاً بتلك المقدمة . القياس المنطقي والقياس المضمر هما الشكلان المنطقيان الأعم في الخطاب الحجاجي العربي .

---

(١) مقال: القديم والجديد ، من: حديث الأربعاء ٣/ ٣١ .

أ/ ٣ القياس المتدرج

القياس المتدرج Sorites – شأنه شأن القياس المنطقي – شكل من أشكال تحديد العلاقات المنطقية – الدلالية بين الأقوال وما تعبر عنه من قضايا . يعد القياس المتدرج امتدادا معقدا للتعليل القائم على القياس المنطقي ؛ وذلك بأن تتصل بعض مجموعات القياسات المنطقية ببعض ، حتى تؤدي إلى نتيجة هي المقدمة الكبرى لنتيجة أخرى لاحقة(١) .

يمكن أن نضرب مثالا توضيحيا على القياس المتدرج فيما يلي:

كل المسايرين للموضة متحررون من القيود .

كل المتحررين من القيود مزعزعون .

كل المزعزعين مرضى عقليا .

كل المرضى عقليا في حاجة إلى التعاطف .

كل المسايرين للموضة في حاجة إلى التعاطف .

يلاحظ فيما سبق أن المقدمتين الأوليين تقودان إلى نتيجة صالحة: «كل المزعزعين مرضى عقليا» ؛ وذلك أن التعبير «متحررون من القيود» موزع على المقدمة الصغرى: «كل المسايرين للموضة مزعزعون» . وهذه هي المقدمة الكبرى غير المعبرَّ عنها والتي تقود مع القول الثالث: «كل المزعزعين مرضى عقليا» ، إلى نتيجة أخرى جديدة: «كل المسايرين للموضة مرضى عقليا» ، وهي نتيجة ترجع بدورها إلى المقدمة الكبرى التي كان القول الرابع مقدمتها الصغرى ، وكان القول الخامس نتيجة القياس المنطقي الضمني والاستنتاج المتدرج الكلي .

---

(١) Brandt, William : The Rhetoric of Argumentation, p. 31 .

تبرهن العينات على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتمادا على القياس المتدرج . من أحد النصين المختارين له ، وهو «القديم والجديد» يقول في سياق عرضه للخلاف الدائر بين أنصار القديم والجديد في الأدب : «نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد ... إنها مسألة تلازم الأمم الحية ، وتلازمها لأنها حية ؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطورا وكان التطور بطبيعته انتقالا من حال إلى حال ، وكان هذا الانتقال نفسه موجودا للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل . فليس للجديد بدّ من أن يجاهد ليظهر ويستأثر بالحياة ، وليس للقديم بدُّ من أن يجاهد قبل أن يزول ويفقد سلطانه على النفوس» (١) .

يمكن تصوير القطعة السابقة في نسق القياس المنطقي المتدرج على النحو التالي:

- القديم والجديد مسألة تلازم الأمم الحية ؛ لأنها حية .
- الحياة تطور .
- التطور انتقال .
- الانتقال موجود للخلاف بين جديد وقديم .
- الجديد لابد له من أن يجاهد (ليظهر) . والقديم لابد له من أن يجاهد (قبل أن يزول) .
- القديم والجديد مسألة جهاد بين الزوال والظهور .

غني عن البيان أن كاتب الحجاج لا يشغل نفسه دائمًا بأن يجعل أقواله مقيدة بقالب القياس المنطقي المتدرج التقليدي . ربما ظهرت أقواله على هذا النحو ،

(١) مقال: الجديد والقديم من : حديث الأربعاء ٣/ ٣١ .

وربما تحررت في نسق النظم بعض الشيء – على نحو ما رأينا في القطعة السابقة – من غير أن يفسد المحتوى الجوهري الذي تؤسس عليه البنية الأساسية لهذا النوع من القياس المنطقي .

يمتد القياس المتدرج غالبًا إلى عدة أقوال ، ولكنه قد يبنى على عدد محدود من الأقوال أحيانًا على حسب ما يوصل إلى النتيجة التي يريدها المتكلم . القياس المتدرج التالي قياس غير ممتد ؛ لأنه يقدم قولين اثنين فقط ، ثم ينتهي بنتيجة القياس . يقول خالد محمد خالد في سياق دفاعه عن الديمقراطية: «إن الأمة التي يزيف تاريخها تكون كأمة بلا تاريخ ، وأمة بلا تاريخ كشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار» (١) .

يصور القياس المتدرج فيما سبق على هذا النحو:

- أمة زائف تاريخها كأمة بلا تاريخ .
- أمة بلا تاريخ كشجرة اجتثت من فوق الأرض .
- أمة زيف تاريخها كأمة اجتثت من فوق الأرض .

من القياس المتدرج غير الممتد أيضًا قول محمد زكي عبد القادر: «والرفاهية إذا دامت انقلبت إلى ما يشبه الإدمان ، لا تكفي منها جرعة واحدة أو جرعات ، والإدمان يفسد الجسم والروح والعقل» (٢) .

تقدم القطعة السابقة القياس المتدرج التالي:

- الرفاهية إدمان .

---

(١) مقال: تجربتنا مع الديمقراطية من : دفاع عن الديمقراطية ص ٣١ .

(٢) مقال: من الألم ينبع كل شيء عظيم ، من : الله في الإنسان ص١٥١ .

- الإدمان يفسد الجسم والروح والعقل .
- الرفاهية تفسد الجسم والروح والعقل .

يبنى القول اللاحق على جزء من القول السابق حتى ينتهي القياس المتدرج إلى نتيجته . في القياس المنطقي التقليدي تنتمي المقدمة الصغرى إلى الطبقة الأعلى في المقدمة الكبرى . وهذا تمييز واضح بين النوعيين .

هذا ويشير وليم برانت W.Brandt إلى أن الاستنتاج المتدرج مهم جدًا للحجاج ؛ وذلك أنه يسمح للكاتب يطرح خطوات واضحة تطبع حجاجه بطابع الهدوء ، ولكنه الهدوء الذي لا يصل إلى الحركة البطيئة جدًا والتي تضيّع على القارئ انتباهه[1] .

من الجائز توسيع ملحوظة برانت السابقة حتى تسرى على أشكال القياس المنطقي جميعا ؛ وذلك أنها جميعا تسم الخطاب الحجاجي بسمة الهدوء الذي ينتج عن بنائها على التفصيل والتقسيم ، واحتياجها في الربط بين الأقوال وصولا إلى النتيجة إلى الأناة والانتباه .

لعل ارتباط الأقيسة المنطقية بالهدوء متناسب تناسبا طرديا مع ميل النص الحجاجي في موضوع ديني أو فكري إلى توظيف القياس المنطقي والقياس المضمر والقياس المتدرج وسائل إقناعية ، في مقابل ميل النص الحجاجي في موضوعات عامة أو اجتماعية إلى الاحتفاء بالقياس على النظير وضرب الأمثال والشواهد من الحياة والخبرات اليومية .

ومهما يكن من أمر ، فإننا نرى فيما اشتمل عليه النص الحجاجي العربي من

(١) وليم برانت ، مرجع سابق ص٣٢ .

أشكال مختلفة للقياس المنطقي ، ما يهدم زعم باربرا جونستون كوتش B.J.Koch.[1] . تزعم باربرا أن الحجاج الغربي يعتمد على قالب من البرهان قائم على القياس المنطقي Syllogism Model of Proof ، في مقابل الحجاج العربي الذي يقنع عن طريق عرض دعاويه الحجاجية argumentative claims عرضا لغويا بالترديد وإعادة الصياغة. عرض الحجاج العربي دعاويه بالوسائل اللغوية السابقة صحيح ، ولكنه يستخدم – بالإضافة إليها – الوسائل المنطقية المختلفة على نحو ما أثبتنا .

(ب) الوسائل اللغوية

الوسائل المنطقية واللغوية في كل نص حجاجي هي سداه ولحمته . كانت اللغة الأداة اللفظية لنقل المعنى أو النتيجة في كل قياس منطقي . ولما كانت اللغة في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعبَّر عنها وإقناعهم بمصداقيتها ، وهو أمر يرغب في البحث عن بدائل لغوية لما نألفه في مواقف غير حجاجية ، فإننا نقتصر هنا على استكشاف الوسائل اللغوية ذات الصلة الوثقى بالإقناع وتحليل أنماطها المختلفة . إن تحليل لغة النص الحجاجي من منظور الاختيار اللفظي ، والتكثيف اللغوي ، وخصوصية البنية المجازية ، وكيفيات توزع الجمل البسيطة والمركبة والمعقدة والمركبة المعقدة ، وطبيعة الإحالة الضميرية (كاستخدام نحن ونا للمعظم نفسه إزاء خصمه على نحو ما نجد مثلا في مكاتبة الإخشيد إلى أرمانوس) ، فضلا عن بحث العلاقة بين اللغة والتقنيات الحجاجية الموقفية ؛ كالاستدارج ، والمناورة (لا سيما بالجمل

(١) Koch, Barbara Johnstone: Presentation as Proof: The Language of Arabic Rhetoric. Anthropological Linguistics. Vol. 25. No. 1 (1983) pp. 47-60 .p. 47.

الافتتاحية) ، ومحاورة المخاطب المفترض ، والتظاهر بالتلقائية ونحوها ، لمن مجالات البحث اللغوي الاتصالي المهمة التي تزودنا بمعطيات مفيدة عن النص الحجاجي العربي ، تمس إليها الحاجة في حقل تحليل النص العربي . ولكننا – كما اشرنا – سوف نقتصر هنا على تحليل البني اللغوية التي يغلب وقوعها في النص الحجاجي العربي والتي تزوده بأدوات مهمة في الإقناع والاستمالة ، بما يجعله متمايزا – إلى حد بعيد – عن غيره من أنواع النصوص الأخرى .

بناء على ما تقدم ، يمكن أن نميز بين عدد من البني اللغوية ، من أهمها: بنية التكرير ، وبنية التوازي ، وبنية الازدواج أو التوازن .

ب/ ١ بنية التكرير

يزودنا استقراء بعض المصادر البيانية بطائفة من المعطيات المهمة عن التكرير ، نجملها فيما يلي:

١- للتكرير (ويسمى أيضًا بالترديد والترداد) وظائف خطابية عدة ، عبر عنها بالإفهام والإفصاح والكشف [(١)] ، وتوكيد الكلام والتشييد من أمره ، وتقرير المعنى وإثباته [(٢)] .

٢- ليس التكرير محض وقوع للفظ في الكلام أكثر من مرة ، أو صياغة المعنى الواحد أكثر من مرة . يخرج عن حكم التكرير مثلا إطالة الفصل من الكلام وافتقار أوله إلى تمام لا يفهم إلا به . يقتضي سبك الكلام – إذ ذاك – أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل . مثال هذا قوله تعالى: ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ

(١) ابن الأثير (ضياء الدين) : المثل السائر ، مرجع سابق ٣/ ٤، ١، ٢٠ ، ٢٩ .
(٢) المرجع السابق ٣/ ١٧ .

﴿ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] .

٣- ترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوك المخاطب . يقول ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) : «إذا صدر الأمر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجردا من قرينة تخرجه عن وضعه ، ولم يكن موقتا بوقت معين ، كان ذلك حثا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور ، فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام: «قم قم قم» ، فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة»[(١)].

٤- التكرير ظاهرة لغوية مقامية . من أهم ما يدل على هذا الفهم إشارة ابن الأثير إلى تكرير المعنى في مقام الاعتذار والتنصل قصدا إلى التأكيد والتقرير لما ينفى عن المتكلم ما رمى به[(٢)].

٥- قدمت محاولات لتصنيف أنواع التكرير . من أشهر التصنيفات ما قدمه ابن الأثير:

(أ) التكرير في اللفظ والمعنى .

(ب) التكرير في المعنى دون اللفظ .

من النوع الأول قولك لمن تستدعيه: «أسرع أسرع» . ومن النوع الثاني قولك: «أطعني ولا تعصني» ؛ فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية[(٣)].

٦- قدمت محاولات أخرى لتصنيف التكرير في المعنى ، ولكنها كانت محاولات

---

(١) المرجع السابق ٣/ ٣.

(٢) المرجع نفسه ٣/ ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ٣/ ٣ .

جزئية للغاية . من ذلك التفات ابن الأثير إلى أن التكرير في المعنى يدل على معنيين: أحدهما خاص ، والآخر عام ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] . فإن الأمر بالمعروف خير ، وليس كل خير أمرا بالمعروف ؛ وذاك أن الخير أنواع كثيرة ، من جملتها الأمر بالمعروف [(١)] .

وكان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) قد قيد التكرير – ويسميه الترداد – بقدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص [(٢)] .

في اللسانيات النصية ، عولج التكرير من منظور دوره في السبك المعجمي ، وذلك أن يحيل اللفظ المكرر إلى لفظ آخر سابق مرادف ، أو مرادف قريب ، يرتبط به بالإحالة المشتركة [(٣)] . ومن أشهر الأطر المقترحة لوصف السبك المعجمي ما رأيناه عند هاليداي ورقية حسن [(٤)] .

ومهما يكن من أمر ، فإن وظيفة التكرير التركيبية تخرج عن إطار غرضنا هنا، إنما نعني بتحليل بنية التكرير من منظور الوظيفة الاتصالية الإقناعية . نرى هنا للقدماء إشارات مهمة تفيد في إلقاء الضوء على تلك الوظيفة . يقرن أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) التكرير بتأكد الحجة [(٥)]، ويجعل التكرير مدًّا للقول ،

---

(١) المرجع السابق ٣/ ٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٠٤ .

(٣) Halliday, M.A.K – Hasan, Ruqaiya : Cohesion in English. Longman . 5 th. Impression (1983) pp. 278-282 .

(٤) المرجع السابق ص٢٨٨ .

(٥) العسكري (أبو هلال) : كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) ص١٥٦ .

ومن ثم يربط بين مدّ القول وبلوغه الشفاء والإقناع [١].

شغلت البنية التكرارية للخطاب الحجاجي العربي بال عدد من المستشرقين: ترى شيرلى أوستلر Schirly Ostler – في دراسة تقابلية بين النثر الإنجليزي والنثر العربي أنه «على عكس التطور في الإنجليزية من لغة شفهية إلى لغة كتابية ، تظل العربية الكلاسيكية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتقاليد شفاهية oral traditions» [٢].

وترى باربرا جونستون كوتش B.J.Koch أن خطاب الحجاج العربي يعتمد في الإقناع على العرض اللغوي للدعاوي الحجاجية بتكريرها وصياغتها صياغة موازية ، وإلباسها إيقاعات نغمية بنائية متكررة . وترى أن هذا الطراز من الحجاج هو نتيجة المركزية الثقافية للغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي . وتسمى باربرا هذه الاستراتيجية البلاغية: استراتيجية الإقناع بالتكرير repeating وبالصياغة الموازية rephrasing وبإلباس الدعوى وإعادة إلباسها إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات ، تسميها باسم «استراتيجية العرض Presentation (استحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره) [٣].

أما ارتباط العربية بتقاليد شفاهية ، فهو أمر تثبته البني اللغوية للنصوص ، ونرى له آثارا عدة على المستوى الصوتي – الصرفي والمستوى التركيبي معا . ووقوف القدماء من اللغويين والنحاة على تلك الآثار دليل تاريخي قديم على الوعي بوجوده . وأما إطلاق كوتش القول بالتكرارية في الحجاج العربي ، فأمر

---

(١) المرجع السابق ص١٥٧ .

(٢) Ostler, Schirley, E. : English in Parallels : A Comparison of English and Arabic Prose. South California Uni. Pp. 169- 185, p. 172 .

(٣) Koch, B.J. : Presentation, op. cit. p.47.

نريد هنا تقييده باستقراء النصوص .

تقبل أنماط التكرير في النصوص المختارة لهذه الدراسة أن تصنف بأي طريقة للتصنيف . نختار هنا أن نصنفها إلى صنفين رئيسين: تكرير الشكل ، وتكرير المضمون . يشتمل تكرير الشكل على اللفظ المفرد والعبارة أو الجملة ، وهو تكرير شكلي في مقابل تكرير المضمون الذي آثرته على ما أسماه بعض القدماء مثل ابن الأثير بتكرير المعنى ؛ وذلك أن ما سمى بتكرير المعنى لا يكون المعنى فيه مكررا، بل يتغير بتخصيص أو تعميم أو اشتراك في جزء من المعنى . وإذن ما يجمع المعنى والمعنى هنا نقل مضمون عام واحد .

ب/ ١- أ تكرير الشكل

ينبغي لنا أولا الإشارة إلى أن تكرير الشكل لا صلة له بالإقناع إلا إذا لوحظ فيه قصد إلى ذلك . في مثل قول العقاد: «ثم إننا لا نعرف شعرا يرويه الناس ويقال إنه يعني قائله وحده ؛ لأن شعر النفس يعني كل نفس» [(١)]. تكررت الكلمتان «شعر» و«نفس» مرتين ، ولكننا لا نرى في هذا التكرير قصدا إلى إقناع ؛ لأنه لا بديل في سبك ذلك المنطوق عن مثل هذا التكرير . وقد مرت بنا إشارة ابن الأثير إلى حكم التكرير ، وأنه يخرج الحالات التي يطول فيها الفصل من الكلام حتى يفتقر أوله إلى تمام لا يفهم إلا به . تطول القائمة بحالات أخرى يقتضيها السبك ولا أثر فيها لقصد التقرير أو التوكيد أو الإقناع أو نحو ذلك ، ولكننا نريد لنذكر أمثلة للتوضيح من نصوص كاتب واحد هو العقاد:

- قوله: فتهيّج فيها (الأصوات) العاطفةُ العاطفة ، وتبعث الرغبة الرغبة»[(٢)].

(١) مقال : الأدب العصري ، من: الفصول ص١٠٥ .

(٢) الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص ٩٥ .

- وقوله: «وكأنما ينزع نفسه من نفسه» [(١)].
- وقوله: «لأن المدارك مدارك فرد واحد ، والهوى هوى نوع بأسره» [(٢)].
- وقوله: « يخالجه الغضب كما يخالجه الطرب» [(٣)].
- وقوله: «ولكنه (أي العشق) غريزة يراد بها بقاء النوع كله واتصال حبل الحياة جيلا بعد جيل» [(٤)].

يمكن أن نرى لبعض هذه الاستخدامات وظائف خاصة ، كأن تكون الوظيفة هي الوصف في نحو «جيلا بعد جيل» ؛ أي أجيالا متتابعة ، ولكننا لا نرى في غيرها إلا وظيفة سبكية خالصة Cohesive Function يقتضيها التركيب ، لا بلاغية يقتضيها المقام . مثل هذه الحالات لا موقع لها من الاهتمام في دراستنا .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل ، وفقا لما يتيحه لنا استقراء النصوص المختارة ، وهي:

١- تكرير المكرر بذاته ، سواء أكان لفظا مفردا أم غير ذلك ، في منطوق واحد ، أم غير ذلك .

٢- التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة .

٣- التكرير بإعادة الصياغة .

أما (النوع الأول) ، وهو تكرير المكرر بذاته ، فقد يكون لفظا مفردا ؛ كقول

---

(١) المرجع السابق ص٩٦ .
(٢) المرجع نفسه ص ٩٩ .
(٣) المرجع نفسه ١٠٢ .
(٤) المرجع نفسه ص٩٩ .

طه حسين في سياق دفع دعوى أنصار القديم: «فإن كانوا كذلك ، فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق . وكيف لا ترحم من يحيا راغما ويلذ راغما ويألم راغما!» [(١)]. وقول مصطفى محمود في سياق تبريره دعواه بتغير حال الدنيا: «والكلام في وسائل الإعلان عن التلوث: الهواء الملوث، والماء الملوث ، والطعام الملوث» [(٢)]. وربما امتد تكرير اللفظ في النص الحجاجي العربي امتدادا أبعد كثيرًا حتى يبدو النواة الكبرى في تشييد دعواه الرئيسة . ومن ذلك مثلا كلمة «متعددة» في نص «التعدد في حياة الإنسان» لمحمد زكي عبد القادر ، ومنه قوله: «الإنسان من حيث هو إنسان له ارتباطات متعددة ، وعمره على هذه الأرض له مراحل متعددة، ونظره إلى الأمور له وجوه متعددة ، وهو من حيث إنه إنسان له عقل ، تخطر عليه تساؤلات متعددة ، ومن حيث إنه إنسان له قلب تضطرب في قلبه عواطف متعددة ...» [(٣)].

يريد الكاتب بالتكرير فيما سبق تثبيت تبريره دعواه ، حيثما يكون استبقاء المكرر في الزمان والمكان وسيلة لدحض ضده .

في حالات أخرى يجعل الكاتب المكرر بذاته وسيلة لغوية للوصول إلى الهزء بالخصم وفضح جهله . نضرب مثالا على ذلك قول طه حسين عن خصمه الرافعي: «فإذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهي أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ، ومن هنا فهمنا القدماء ، ولم نفهم هؤلاء

(١) مقال «القديم والجديد» من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ٣١ .

(٢) مقال «أنشودة الأمل» من كتابه: كلمة السر ، كتاب اليوم – دار أخبار اليوم (١٩٩٨) ص١٥ .

(٣) مقال «التعدد في حياة الإنسان» من كتابه: الله في الإنسان ، مرجع سابق ص١١ .

السادة «المتقادمين» !»[1].

في عبارة «هؤلاء السادة المتقادمين» سخرية واضحة بالخصوم الذين تكلفوا نهج القدماء على غير علم ، وقد مهد لهذه السخرية تكرير لفظ «القدماء» قبلها .

ولعل طه حسين أكثر الحجاجيين المحدثين استخداما لبنية التكرير قصد السخرية بالخصم . وتكشف سياسة السياق اللغوي مع تلك البنية عن كفاءة اتصالية حجاجية عالية . نؤكد ذلك بمثال آخر هو قوله: «لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أني من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم ، .... ، وإن رجلا يحتمل السفهاء مثل ما نحتمل ... لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحدا ، أو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحدا»[2]. وقعت «السفهاء» في النص السابق أربع مرات . يمكن في الموضوع الثاني استبدالها بالضمير أو اسم الإشارة المناسب . ويمكن في الموضعين الثالث والرابع الاستغناء عنها ، ولكن الكاتب قصد بتكرير اللفظ تهييج خصمه – موصوفا بالسفه – مع كل مرة ! التكرير هنا إذن وسيلة لإقناع الخصم عن طريق دحض زعمه وكشف حقيقته .

من ناحية أخرى ، قد يكون المكرر بذاته عبارة أو جملة . ويقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات ، كما يقع في التبريرات والدعاوي جميعا . يلفت الانتباه هنا تكرير الجملة في الدعوى ، سواء أكانت المقدمة دعوى الحجاج أم وقعت المقدمة والدعوى في مكانيهما المعتادين . في مقدمة حجاجه ، نرى للكندي هذه الجملة: «إنما المال لمن حفظه» . وفي نص دعواه يكرر هذه الجملة مع جمل أخرى

(١) مقال أحسن إليّ ، من : حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦ .
(٢) المرجع السابق ٣/ ١٢٧ .

برهن فيما سبق من خطابه على صحتها بالتبرير: «فالمال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه» [(١)]. ينكر طه حسين على أنصار القديم نصرهم القديم في الوقت الذي يستمتعون فيه في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة ، فيقول: «ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسى رفضا ، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة – أريد أن أرى هؤلاء ، ولكنني يائس من رؤيتهم» [(٢)]. التكرير هنا تعبير عن رغبة أحد طرفي الحجاج الملحة في أن يثبت الخصم ما يبرهن على صلاحية معتقده ، ولكن تظل هذه الرغبة غير متحققة ؛ لأن ما يصدر عن ذلك الخصم يضاد ذلك المعتقد .

في مواقع أخرى ينقض طه حسين دعوى الخصم بحكم صريح ، يكرر منطوقه تثبيتا لمضمونه ورغبة في رجوع الخصم عما ادعى . من ذلك مثلا العبارة «ليس من القديم الصالح في شيء» المكررة بصدر كل منطوق فيما يلي: «ليس من القديم الصالح في شيء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير أو تلائم بينه وبين اللغة . وليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة ، فلا تستطيع أن تنطق باسمها إلا إذا وجدت لها اسما عربيا ورد في المعاجم اللغوية القديمة . ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القدماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء ... ثم ليس من القديم

(١) البخلاء ص ٧٨ .

(٢) مقال «القديم والجديد» من كتابه ، : حديث الأربعاء ٣/ ٣٢ .

الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القدماء في وصف الجمال ، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا» [(١)].

وتكرر الجملة جزءًا من منطوق كامل في عجزه أيضًا ؛ كقول محمد زكي عبد القادر في توكيده واحدية مصدر أشياء عدة: «الأدب العظيم جاء من المعاناة ، والفن العظيم جاء من المعاناة ، والحب العظيم جاء من المعاناة ، ...» [(٢)].

يهدف التكرير فيما سبق إلى تثبيت الدعوى أو تقرير المعطيات . إنه يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهوما أكثر . إنه يزيد الفهم بجذب انتباه المستقبل وامتلاكه .

أما (النوع الثاني) ، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة، فنراه في غير نص من النصوص المختارة . يمكن أن نرى من ذلك قول إخوان الصفا: «واعلم أن إقدار الله القادرين وتقويته الأقوياء وتيسير الأمور ليس بمجبر لأحد منهم على فعل من الأفعال ولا عمل من الأعمال ولا تركه» [(٣)].

أما مكاتبة الإخشيد ، فهي من النصوص الحجاجية القليلة التي تعرض نموذجا يتسع فيه مدى هذا النوع حتى يصير آلية لغوية مهمة من آليات دفع دعوى الخصم وإقناعه بالإقلاع عنها . من هذه المكاتبة قوله مثلا مخاطبا أرمانوس: «وإن كنت تجري في المكاتبة على رسم من تقدمك ، فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا ، ولا أغني غناءنا، ولا

(١) المرجع السابق ص ٣/ ٣٥ .
(٢) مقال: من الألم ينبع كل شيء عظيم ، من كتابه : الله في الإنسان ص١٥١ .
(٣) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٥ .

ساس في الأمور سياستنا» [(١)]. في هذه المكاتبة نجد أمثلة أخرى عدة على هذا النوع ، نحو «القدرة القادرة» و «نشر الناشرين» و «قول االقائلين» و «يفوت عددها عدّ العادين» و«جبرّية الجبارين» و «شكر الشاكرين» و «سعى لها سعيها» و«سلك مسلكا» و «قلت قولا» ... إلخ [(٢)]. تعكس مثل هذه الهيئة من التكرير المبنية على: فعل + اسم فاعل ، أو : فعل + مفعول مطلق ، تعكس – في سياقها الحجاجي – حالة من حالات التأثير في سلوك الخصم – في منازعة محتدمة – باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس .

أما (النوع الثالث) من أنواع تكرير الشكل ، فهو تكرير بتغيير في التركيب ، يتسع فيه المدى عادة بين الشكل الأول والشكل الثاني . أضرب مثالا على ذلك قول المازني في سياق البرهنة على فوز المذهب الجديد في الأدب: «ولو شئنا ، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمة النهضة بالأدب وتحريره ، لباهينا بالمذهب الجديد فيه وبفوزه على صنوف الاستبداد» [(٣)]. يبرهن الكاتب على دعواه حتى يخلص إلى قوله مكررا العبارة السابقة في تغيير التركيب: «فاز المذهب الجديد على هذه وغيرها من صنوف العنت وضروب الاستبداد» [(٤)]. الترجيع في هذه الحال تشييد للمعنى ووجهة النظر .

ب/ ١- ب تكرير المضمون

يبنى تكرير المضمون أو المحتوى على مكونات لغوية مترادفة أو مشتركة في

(١) كتاب الإخشيد إلى أرمانوس ، في كتاب: جمهرة رسائل العرب ، جمع أحمد زكي صفوت ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . ط١ (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) ٤/ ٤٢١ .

(٢) المرجع السابق ٤/ ٤٢ – ٤٢٢ .

(٣) مقال : الأدب ينهض في عصور المشادة . من كتاب : حصاد الهشيم ص٤٧ .

(٤) المرجع السابق ص٤٨ .

جزء من المعنى . وتتيح لنا النصوص المختارة تصنيف تكرير المضمون إلى الأنواع الأربعة التالية:

١- تكرير مفردتين متواليتين أو أكثر ، في جملة واحدة أو منطوق واحد .

٢- تكرير مفردتين في جملتين أو منطوقين متواليين .

٣- تكرير مفردتين في ثنائية .

٤- تكرير المضمون بين جملتين متواليتين .

وفيما يلي تفصيل هذه النواع:

(النوع الأول) وهو تكرير مفردتين أو أكثر في جملة واحدة أو منطوق واحد لمعنى واحد ، أو لمعنى عام واحد . وهذا النوع لم يخل منه نص من نصوص الدراسة ، بل تظهر الإحصاءات أنه النوع الأشيع ؛ فهو يمثل حوالي ٥٤٪ من مجموع أنواع تكرير المضمون ؛ أي ما يربو على نصف كم الأنواع الأخرى مجتمعة.

يمكن أن نميز لهذا النوع بين أشكال فرعية عدة :

(أولها) يستخدم فيه الكاتب مفردتين أو أكثر على أنها مترادفة وأن إحداها يمكن أن تحل محل الأخرى . وهذا الشكل هو أكثر أشكال هذا النوع وقوعا في النصوص الحجاجية العربية . إنه يمثل ما يقرب من ٧٥ ٪ من جملة الأشكال الأخرى .

من أمثلة هذا الشكل قول الكندي لعياله وأصحابه: «اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله» [(١)].

(١) البخلاء ص ٨٠ .

يرى الكاتب في الجمع بين مفردتين أو أكثر لمعنى عام واحد آلية لشغل فضاء ذلك المعنى كاملا ، حيثما تقصر المفردة الواحدة – في ذلك السياق الحجاجي – عن أداء هذه الوظيفة . يعني هذا بالطبع أن الترادف لا يبلغ – مهما بدا قريبًا – أن يكون ترادفا كاملا .

و(ثانيها) ارتباط الثاني بالأول ارتباط السبب بالمسبَّب . وهذا الشكل يلي سابقه من حيث الشيوع . ومن أمثلته قول إخوان الصفا في مقدمة احتجاجهم لمسألة الإمامة: «وبدرت بين الخائضين فيها العداوة البغضاء ، وجرت بين طالبيها الحروب والقتال» (١) .

و(ثالثها) ارتباط اللاحق بالسابق ارتباط التدرج من هيئة لحدث إلى هيئة أخرى . نرى مثالا على ذلك قول محمد زكي عبد القادر: لنوقن إذن أن الألم قرين الحياة ؛ بل باعثها ومحركها ودافعها إلى الأمام» (٢) . التدرج واضح من بعث مجرد إلى حركة مجردة ومن حركة مجردة إلى دفع إلى الأمام . نرى هذا توكيدا لمقولة اقتران الحياة بالألم في شتى حالاته .

و«رابعها» أن تتضمن الكلمة الثانية الكلمة الأولى ، وهو أن تكون علاقة الثانية بالأولى علاقة العام بالخاص . من ذلك مثلا قول العقاد في سياق دحضه وهما شائعًا بين قراء الشعر ؛ وهو أن شعر الغزل ينبغي له أن يكون مفرطا في رقته بعيدًا عن العنف والقوة: «ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت ألفاظا وحروفا . فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقا قويا عارما» (٣) . العارم يتضمن القوى بالضرورة . وهو تضمن محدود بحدود الانتقال

(١) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٠ .
(٢) مقال: من الألم ينبع كل شيء عظيم ، من كتابه : الله في الإنسان ص١٥١ .
(٣) مثقال: الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص٩٦ .

من درجة إلى أخرى أقوى . وهذا الشكل كثير الوقوع في النص الحجاجي العربي.

و(خامسها) وهو عكس الشكل السابق؛ أي أن الكلمة الأولى هي التي تتضمن معنى الثانية . ومن ذلك قول الإخشيد في سياق احتجاجه لحسن سياسته ممالكه ورعيته: «وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها ، على عظمها وسعتها ، بفضل الله علينا ... وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية»[(١)] . السعة مضمنة في العظم . والتضمن هنا محدود بحدود الانتقال من العام إلى الخاص.

(النوع الثاني) وهو تكرير المضمون المبني على مفردتين في جملتين . ويستدلّ – من خلال فحص النصوص المختارة- على أنه أقل الأنواع وقوعًا ؛ فهو يمثل ٤,٥٪ من مجموع الأنواع الأخرى . ومن أمثلته قول الكندي في سياق احتجاجه لحرصه على دراهمه تجنبا للفقر والحاجة: «فكيف تأمروني أن أوثر أنفسكم على نفسي ، وأقدم عيالكم على عيالي؟» [(٢)] . ومنه أيضًا قول مصطفى محمود في سياق تدعيم دعواه أن الحب هو رأس القضية: «وما كان الصليبيون الذين جاءونا غزاة طامعين على دين ، أي دين ، ولا كان سفاحو الصرب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة» [(٣)] ، رادف الكندي بين (أوثر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى ، ورادف مصطفى محمود في جملتين من القطعة الأخيرة بين (دين) و(ملة) . في الحال الأولى وقع المترادفان بصدر الجملتين ، ووقعا بعجز الجملتين في الحال الأخيرة .

(النوع الثالث) وهو تكرار مفردتين في ثنائية . يمثل هذا النوع حوالي ١٧٪

(١) كتاب الإخشيد ، من كتاب : جمهرة رسائل العرب ٤/ ٤١٩ – ٤٢ .
(٢) البخلاء ص٨٠ .
(٣) مقال : الحب القديم ، من كتاب: الإسلام في خندق ص٨ .

من مجموع الأنواع الأخرى ، أي ما يقل كثيرًا عن سدس تلك الأنواع ، بينما وقوع ذلك النوع كثير نسبيا في النصوص الحجاجية القديمة إذا بالنصوص الحجاجية الحديثة يقل فيها أن يقع تكرير المضمون على مستوى ثنائية لفظية من جملة واحدة . من أمثلة هذا النوع قول الكندي في دفع دعوى خصومه: «وزعمت أنما سمينا **البخل إصلاحا والشح اقتصادا** ، كما سمى قوم **الهزيمة انحيازا والبذاء عارضة** ...» (١) .

ومنه قول إخوان الصفا في سياق القياس على النظير دعما للدعوى: «وعلى هذا المثال حكم سائر **الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة** » (٢) . ومنه أيضًا قول الإخشيد في سياق شرح مذهب من في الأسر من رعيته: «وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر ، وشدة البأساء ، على نعيم الدنيا وخيرها ، **لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته** » (٣) .

تدلنا عينات الدراسة على أن تكرير المضمون من هذا النوع يميل غالبا إلى جعل الطرف الثاني في الثنائية اللفظية أعم وأقوى من الطرف الأول فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن تكرير المضمون من هذا النوع يبدو آلية أساسية من آليات تشييد المعنى وإقناع المستقبل على وجه خاص في بعض نصوص هذه الدراسة ، لا سيما مكاتبة الإخشيد . هذه المكاتبة هي الأكثر احتفاء بذلك النوع من سائر نصوص الدراسة . يمثل تكرير المضمون على مستوى الثنائيات اللفظية في تلك المكاتبة حوالي ٥٢,٦ ٪ من جملة حالاته في النصوص الأخرى جميعا .

---

(١) البخلاء ص٧٩ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٦ .

(٣) مكاتبة الإخشيد ، من: جمهرة رسائل العرب ٤/ ٤١٦ .

وهو يمثل وحده ٤٠٪ من تكرير المضمون في نص المكاتبة ذاتها بجميع أنواعه .

تؤكد ثنائيات تلك المكاتبة فكرة المكاثرة أو المغالبة التي اقتضاها احتجاج الإخشيد لمنزلته ، محور ذلك الاحتجاج ، مثل: «**عظم الشأن وفخامة الأمر**» و«**كبر الأحلام وبعد المرامي**» ... إلخ . وترتبط هذه الثنائيات من ناحية أخرى – على نحو ما سنفصل فيما بعد – باستراتيجية التوازن الغالبة على نص المكاتبة غلبة قوية، بما يجعلها من النماذج المتميزة بين النصوص الحجاجية العربية على الجمع بين تكرير المضمون من ذلك النوع وبين التوازن .

(النوع الرابع) وهو تكرير المضمون على مستوى الجمل والعبارات . وهذا النوع – كما تثبت نصوص الدراسة – يمثل ما يقرب من ربع حالات تكرير المضمون في النص الحجاجي العربي ، فهو يمثل ٢٤,٣٪ من جملة الأنواع .

من أمثلة هذا النوع قول الكندي: «فالمال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه . وإنفاقه هو إتلافه ، وإن **حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب**»[(١)] . – الجملتان الأخيرتان مستخدمتان لمضمون واحد . وربما عبرِّ عن المعنى أو المعنيين بتكرير جمل عدة متوالية ؛ كقوله أيضًا: «فإن للنفس عند كل طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة . وللقادم حلاوة وفرحة ، وللجديد بشاشة وغرّة . فإنك متى **رددتها ارتدت** ، ومتى **ردعتها ارتدعت**»[(٢)] .

ومما يلاحظ هنا أن تكرير المضمون على مستوى الجمل ةوأشباهها في النصوص الحجاجية العربية الحديثة أقل بعامة منه في النصوص الحجاجية العربية القديمة . بينما النسبة الأعلى في النصوص القديمة هي ٤٠٪ تقريبًا (وذلك في

(١) البخلاء ص٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص٨ .

حجاج الكندي لبخله) إذا بالنسبة الأعلى في النصوص الحديثة لا تجاوز ٣٣,٣٪ (عند طه حسين) . تبين المقارنة بين النسبتين – من ناحية أخرى – دنو طه حسين من الأسلوب العربي القديم في الحجاج ؛ وهو أسلوب يحتفي احتفاء خاصا بإعادة صياغة المعنى وإيقاعية التوازن اللذين يعكسان تفكيرا مطولا ، تغلب فيه السلاسة والهدوء على الانتقالات المفاجئة أو السريعة . ومن الملائم هنا الإشارة إلى ما لاحظه والتر أونج Walter Ong في قوله: «ويميل التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي – حتى عندما لا يكون في شكل شعري- إلى أن يكون إيقاعيا بشكل ملحوظ ؛ لأن الإيقاع – حتى من الناحية الفسيولوجية – يساعد على التذكر»[(١)] . ولعل طه حسين أدنى المحدثين إلى النمط الشفاهي ؛ فهو متأثر أشد التأثر بالنمط التعبيري القديم ، فضلاً عن اعتماده على التأثير الإيقاعي عند سبك جمله والربط بينها ، كأنما جعل من ذلك كله تعويضا عن نقل كلامه بوساطة الإملاء .

ومهما يكن من أمر ، فإن تأمل حالات ذلك النوع ، يدلنا على أن الجملة الثانية نميل غالبًا إلى أن تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجملة الأولى التي تشترك معها في الدلالة العامة . ولعل طه حسين والعقاد أحرص المحدثين – ممن اخترنا لهم في هذه الدراسة – على اطراد هذه العلاقة بين الجملتين ، مما يجعل لذلك النوع عندهما أهمية خاصة في دفع المعنى إلى درجة أقوى ، وهو ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إقناع المخاطب واستمالته . يقول طه حسين – في سياق رده على الرافعي دعواه أنه كان يحسن اللغة حتى خاف منه خصمه طه حسين: «لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أنى يعلم أن من قوم

(١) أونج ، والتر : الشفاهية والكتابية ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت (١٤١٤- ١٩٩٤) ص٩٤ .

قد بلوا السفهاء ، فأحسنوا بلاءهم ، **وصبروا لهم واحتملوا منهم** »[(١)]. التكرير في (صبروا لهم واحتملوا منهم» . ويقول العقاد في سياق دفع دعوى بعض الناس بأن الرقة هي الصفة الأولى للشعر: «ويعلم (العاشق) حينئذ أن السعادة التي سمع بها هي تلك القوة التي كانت **تصطرع للظهور ، وتتأجج للسطوع** »[(٢)]. والتكرير في (تصطرع للظهور وتتأجج للسطوع» . هذان مثالان للغالب في تكرير المضمون من ذلك النوع عند هذين الكاتبين ، وهو الانتقال إلى الأعم والأقوى .

وربما بدا تكرار المضمون على مستوى جملتين أو أكثر في هيئة إيضاح أو شرح الثانية للأولى . أضرب مثالا على ذلك قول العقاد في سياق تدعيم دعواه بأن الرقة لا تستهجن في الشعر كله ، وإنما تعاب في غير موضعها : «فمن ذا الذي يسمع الأغاني الشائعة في أيامنا هذه من **استقامت فطرتهم وسلمت من المسخ أذواقهم** ، فلا يخجله أن يكون هذا الطنين الخافت صدى نفوس آدمية ينتسب إليها وتنتسب إليه»[(٣)]. ويقول مصطفى محمود في سياق شرح دعواه بأن الدين هو الحب القديم والحنين الدائم إلى الوطن الأصل ، وأنه ليس – كما يفهم الناس – مجموعة الأوامر والنواهي ولوائح العقاب: «ولا نفيق على هذا الحنين إلا لحظة يحيطنا القبح والظلم والعبث والفوضى والاضطراب في هذا العالم ، فنشعر **أننا غرباء عنه ، وأننا لسنا منه وإنما مجرد زوار وعابري طريق** »[(٤)].

في كلام العقاد كانت «سلمت من المسخ أذواقهم» توضيحا لـ «استقامت فطرتهم» ، وفي كلام مصطفى محمود كانت «أننا لسنا منه وإنما مجرد زوار وعابري

(١) مقال : أحسن إليّ ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ١٢٧ .
(٢) مقال : الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص ١٠٠ .
(٣) مقال : الأدب العصري ، من كتابه :الفصول ص ١٠١ .
(٤) مقال : الحب القديم ، من كتابه : الإسلام في خندق ص ٧ .

طريق» توضيحًا لـ «أننا غرباء» .

تكرير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر أوسع من غيره مدى في نص الخطاب ، ولعله – من أجل ذلك – أبلغ أثرا في إقناع المخاطب بوجهة نظر المتكلم أو دعواه أو مصداقيته أو دحض دعوى الخصم مرة بعد أخرى .

مما سبق يمكن عرض نموذج التكرير في النص الحجاجي العربي على النحو التالي:

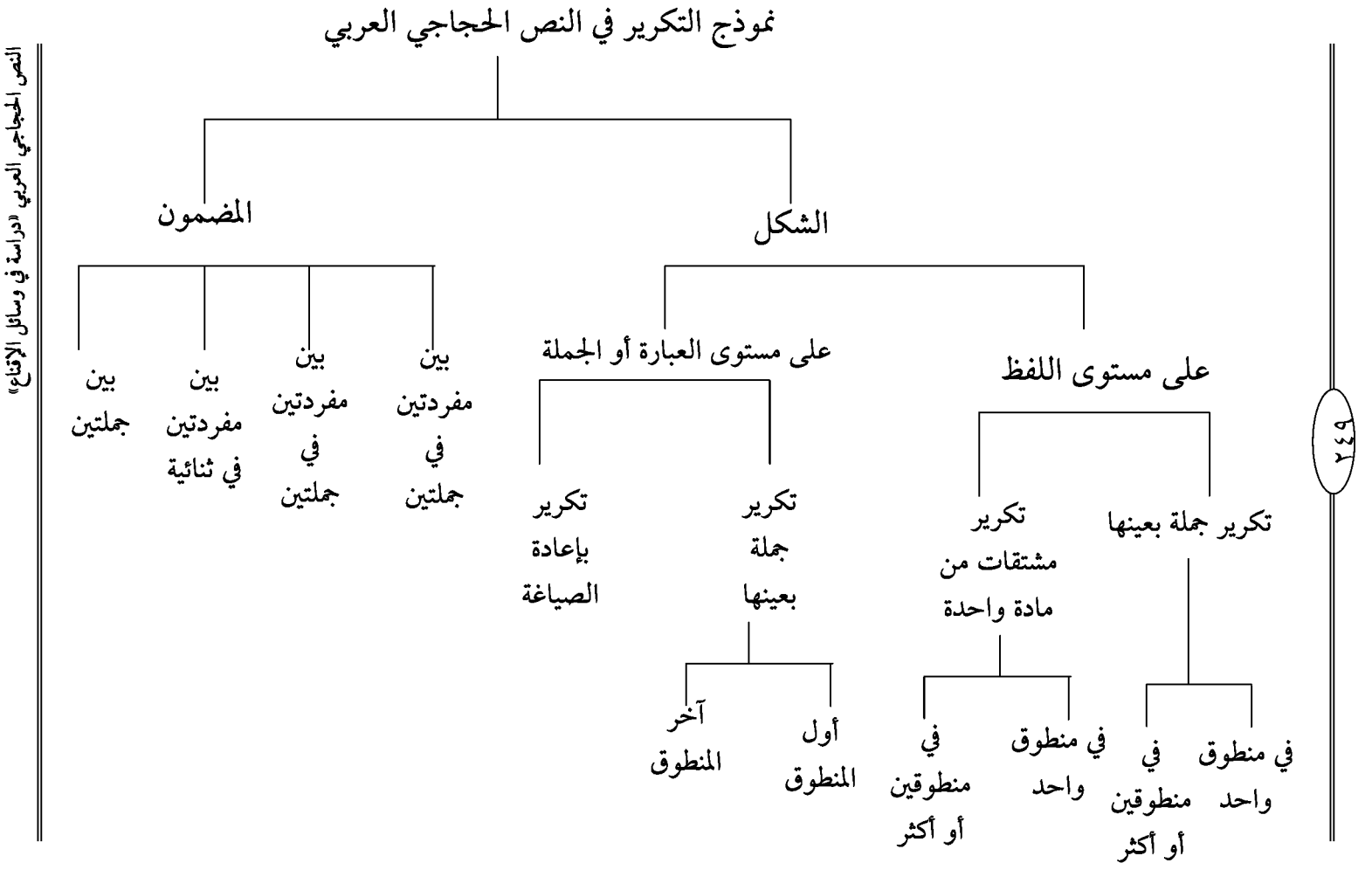
نموذج التكرير في النص الحجاجي العربي
الشكل
المضمون
على مستوى اللفظ
على مستوى العبارة أو الجملة
تكرير جملة بعينها
تكرير مشتقات من مادة واحدة
تكرير جملة بعينها
تكرير بإعادة الصياغة
في منطوق واحد
في منطوقين أو أكثر
في منطوق واحد
في منطوقين أو أكثر
أول المنطوق
آخر المنطوق
بين مفردتين في جملتين
بين مفردتين في جملتين
بين مفردتين في ثنائية
بين جملتين

وفيما يلي جداول تفصيلية بإحصاءات الأنواع المختلفة لتكرير المضمون:

- الكندي (العدد ١٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٤	٪٢٦,٦
بين مفردتين في ثنائية	٣	٪٢٠
بين مفردتين في جملتين	٢	٪١٣,٣
بين جملتين أو أكثر	٦	٪٤٠

- إخوان الصفا (العدد ٣)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	٪٦٦,٦
بين مفردتين في ثنائية	١	٪٣٣,٣
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

- مكاتبة الإخشيد (العدد ٢٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٤	٪٢٦,٦
بين مفردتين في ثنائية	٣	٪٢٠
بين مفردتين في جملتين	٢	٪١٣,٣
بين جملتين أو أكثر	٦	٪٤٠

- طه حسين (العدد ١٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٦٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٥	٣٣,٣٪

- العقاد (العدد ٢٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٤٥,٤٪
بين مفردتين في ثنائية	٣	١٣,٦٪
بين مفردتين في جملتين	٣	١٣,٦٪
بين جملتين أو أكثر	٦	٢٧,٣٪

- المازني (العدد ٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١	٥٠٪
بين مفردتين في ثنائية	١	٥٠٪
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

- خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	٦٦,١٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	١	٣٣,٣٪

- خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٥	١٠٠٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

- خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٤	٦٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	١	٤,٨٪
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٦	٢٨,٦٪

- الإحصاء الإجمالي (العدد ١١١)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٦٠	٥٤٪
بين مفردتين في ثنائية	١٩	١٧,١٪
بين مفردتين في جملتين	٥	٤,٥٪
بين جملتين أو أكثر	٢٧	٢٤,٣٪

ب/ ٢ بنية التوازي

قدم هاليدى M. A. K. Halliday في كتابه (مدخل إلى النحو الوظيفي An Introduction to Functional Grammar) منهجا لدراسة التوازي ، هو الأدق والأوفى حتى الآن . وهو منهج يصلح تطبيقه على العربية ، على نحو ما نثبت في هذه الدراسة . فصل هاليداى منهجه في التوازي تفصيلاً مبينا . نعرض منهجه هنا موجزين – قدر المستطاع – تيسيرًا لمتابعة معالجة التوازي في نصوص الدراسة .

التوازي Parataxis عنده ربط بين عناصر متساوية الحال equal status . هناك عنصر سابق initiating وعنصر آخر متصل به أو لاحق Continuing . كل من هذين العنصرين حر ؛ أي له كيانه الوظيفي الكامل . ويميز هنا بين التوازي على النحو السابق والتركيب Hypotaxis ؛ فالتركيب ربط بين عناصر غير متساوية الحالة ؛فهناك العنصر المتحكم ؛ وهو عنصر حر ، والعنصر المتحكم فيه ؛ وهو غير حر . وكل منطوق خليط من السلاسل المتوازية والمتراكبة . مثال ذلك:

– سأفعل	إن استطعت	ولكني لن أستطيع
١ أ	١ ب	٢

نرى هنا علاقة تواز بين «سأفعل إن استطعت» و «لكني لن أستطيع» . وتبين هذه العلاقة هكذا: ١ ٢ . ونرى أيضًا علاقة تراكب بين «سأفعل» و«إن استطعت» . وتبين هذه العلاقة هكذا: أ ب .

يحدد هاليداى العلاقات الدلالية – المنطقية التي تقع بين العنصرين: السابق واللاحق – في بنية التوازي – في علاقتين رئيستين اثنتين:

(١) علاقة التمديد Expansion : وتعني تمديد الجملة الثانية للجملة الأولى بإحدى الطرق الثلاث التالية:

(الطريقة الأولى) الإحكام = (« مساو ») : فالجملة الثانية تحكم الأولى كلية أو تحكم جزءا منها ، وذلك بأن تقررها بعبارة أخرى ، أو بأن تحددها على نحو أكثر تفصيلا ، أو بأن تعقب عليها ، أو بأن توضحها بمثال:

– فلان لم ينتظر ؛ جرى بعيدا

١ =٢

الجملة الثانية لا تدخل عنصرا جديدا إلى الصورة ، بل تشخص عنصرا مذكورا بالفعل تشخيصا أكثر ، بأن تقرره أو توضحه أو تنقحه ، أو بإضافة خاصة أو تعليق وصفيين .

(الطريقة الثانية) الإطالة + (« يضاف إلى ») : وذلك بأن تمد الجملة الثانية الجملة الأولى بإطالتها عن طريق إضافة عنصر جديد ، أو بأن تستثنى منها شيئًا ، أو بأن تعرض بديلاً (الواو ، أو) :

– فلان جرى بعيدا ، واختبأ فلان وراءه

١ +٢

(الطريقة الثالثة) التعظيم × («تكاثر بواسطة») : وذلك بأن تمد الجملة الثانية الجملة الأولى بتنميقها بوساطة تكييفها مع ظرف زماني أو مكاني أو علة أو شرط (هكذا ، كذلك ، لهذا السبب ، مع ذلك ، مع أن ، على أن ، ولكن ، إذن ، من ثم ، حينئذ ، إذ ذاك ...) :

– كان فلان مذعورا ؛ ولهذا جرى بعيدًا .

٢ × ١

(٢) علاقة التصميم Projection : وتعني أن الجملة الثانية تصمِّم من خلال الجملة الأولى . وللجملة المصمَّمة حالتان :

(الحالة الأولى) أن تكون ملفوظا («يقول») (أي تنصيص مزدوج) :

وذلك بأن تصمم الثانية على أنها ملفوظ as Locution أو بناء لفظي:

– قال فلان: «سأجرى بعيدًا»

٢ » ١

(الحالة الثانية) أن تكون فكرة (‘ يفكر ’) (أي تنصيص مفرد) : وذلك بأن تصمم الثانية على أنها فكرة أو بناء معنوي:

– فكر فلان في نفسه : ‘ سأجرى بعيدا ’ [(١)].

٢ ’ ١

(١) راجع في تفصيل ذلك:

Halliday, M. A. K. : An Introduction to Functional Grammar. Edward Arnold. London – Routledge, Chapman and Hall. Inc. U.SA. 2nd Edition (1994) pp. 216-225,pp.23-235.

العلاقات المنطقية – الدلالية التي تحكم علاقة التوازي وطرق هذه العلاقات، هي ذاتها التي تحكم علاقة التراكب ، ولكن طبيعة علاقة جزأى المنطوق أو المركب الجملي أو العباري أحدهما بالآخر تميز بين التوازي والتراكيب . الجدول التالي يبين هذا التمايز:

العلاقة	الطريقة	التوازي	التراكب
التمديد	الإحكام	س لم ينتظر ؛ جرى بعيدا	س جرى بعيدا ، مما فاجأ الجميع
		١ = ٢	أ = ب
	الإطالة	س جرى بعيدا ، واختبأ ص وراءه	س جرى بعيدا ، بينما ص اختبأ وراءه
		١ +٢	أ + ب
	التعظيم	كان س مذعورا ؛ ولهذا جرى بعيدا	س جرى بعيدا ؛ لأنه كان مذعورا
التصميم		١ ×٢	أ « ب
	التلفظ	قال س : «سأجرى بعيدا»	قال س بأنه كان يجرى بعيدا
		١ «٢	أ «ب
	الفكرة	فكر س في نفسه: ' سأجري بعيد '	فكر س أن يجرى بعيدا
		١ ' ٢	أ ' ب

يتضح من الأمثلة بالجدول السابق:

١- أن الرقم ١ يشير – في علاقة التوازي – إلى الجملة السابقة ، وأن الرقم ٢ يشير إلى الجملة اللاحقة . وكل منهما يماثل الآخر .

٢- أن الحرف أ يشير – في علاقة التراكب – إلى الجملة الحاكمة ، وأن الحرف ب يشير إلى الجملة المحكومة ؛ أي أن الجملة الحاكمة تقوم على تكييف الجملة الأخرى المحكومة .

في تفصيل أنماط التمديد ، يبدأ هاليداى بالإحكام Elaborating ، فيجعل له ثلاث صور:

(الأولى) العرض Exposition : وفي العرض تربط الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بتعبير آخر ، لتقديمها من وجهة نظر أخرى . وربما لا يكون ذلك إلا لتقوية الرسالة ، نحو:

- تلك الساعة لا تمشي ، إنها لا تعمل .
- ليست كلبة استعراض ، لا أبيعها على أنها كلبة استعراض .
- تدحض إحدى الحجتين الأخرى ، كلتاهما ليست صحيحة .

يمكن أن تكون العلاقة بين الجملتين صريحة ، وذاك إذا استخدمت الروابط مثل: أو ، بالأحرى ، بعبارة أخرى ، ويمكن أن يقال ، أي .

(الثانية) الشرح بالتمثيل Exemplification : وذلك بأن تطور الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بأن تخصصها أو تحددها على نحو أشد . وغالبا ما يكون ذلك بالتمثيل الفعلي ، نحو:

- دخلنا في سباق . دخلنا في سباق المجموعات .
- وجهك مثل وجه سائر الناس . هكذا العينان ، وأنف في الوسط ، وفم أسفل منه .

في هذه الصورة ، تستخدم الروابط الصريحة: مثلا ، على سبيل المثال ، على سبيل الاستشهاد ، نحو ، مثل ، بخاصة .

(الثالثة) التوضيح Clarification : في هذه الصورة توضح الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بإحدى أساليب التوضيح أو بتعقيب توضيحي:

- تنظر فلانة حائرة ؛ كانت تفكر في البودينج .
- كانت حيوانات للاستعراض ؛ اشتريناها فقط لأنها أليفة .
- لم يقل لها شيئًا قط ؛ الحق أن ملحوظتها السابقة كانت نحو الشجرة .
- لم أفاجأ ، كان ذلك ما توقعته .

يشيع في هذه الصورة تعبيرات مثل: الحق ، حقا ، في الحقيقة ، فعلا ، على الأقل . وليست هذه الروابط مؤشرات بنائية على علاقة التوازي . إنها مؤشرات سبكية Cohesive أكثر منها بنائية Structural . ويغلب جدًا أن تتجاور الجملتان (من غير رابط) .

أما الإطالة Extending فلها صورتان اثنتان:

(الأولى) الإضافة addition : وذلك بأن يضم نسق إلى آخر من غير أن يستلزم ذلك أي علاقة سببية أو زمنية بينهما ، مثل:

- يربي الدجاج ، وترعى زوجته الحديقة .
- إنها لا تعطي أي تعليمات ، ولا تساعد إن أعطت .

غالبًا ما تصحب الإضافات المتوازية بمواد سبكية مثل: أيضًا ، كذلك ، بالإضافة إلى ، فضلا عن ذلك ، من ناحية أخرى .

(الثانية) التنويع Variation: وذلك بأن تقدم الجملة على أنها البديل الكلي أو الجزئي لجملة أخرى:

- لا تقف ناظرا إلى نفسك هكذا ، ولكن أخبرني عن اسمك وعملك .
- هم يعملون عملا طيبا ، غير أنهم كانوا فيه متكاسلين .

- أريد أن أتركك الآن ، بيد أنني لا أجد معي رقم هاتفك .

الروابط السببية التي تصاحب هذه الصورة هي: على العكس من ، بدلا من ذلك ، من ناحية أخرى ، على الرغم من ، غير (بيد) أن .

تدرج المعلومات السابقة في الجدول التالي على هذا النحو:

النوع	المعنى
(١) إضافة	
« و » : إضافة – إيجابية	س و ص
« ليس » : إضافة – سلبية	لا س ولا ص
« لكن » : استدراكية	س وعلى العكس من ذلك ص
(٢) تنويع	
«على رغم» : استبدال [يسد مسد]	ليس س ولكن ص
« غير أن » : طرح أو إسقاط	س ولكن ليس كل س
« أو » : بديل	س أو ص

وأما التعظيم Enhancing ، فتكيف فيه الجملة الأولى الجملة الثانية بإحدى الطرق الممكنة ؛ كالإشارة إلى الزمان ، أو إلى المكان ، أو إلى الطريقة ، أو إلى السبب ، أو إلى الشرط ، أو إلى الحالة [(١)] .

يدلنا فحص النصوص الحجاجية المختارة لهذه الدراسة – في ضوء منهج هاليداى في التوازى – يدلنا على أن العلاقات المنطقية – الدلالية التي تقع بين العنصرين : السابق واللاحق في بنية التوازي ، قد تجلت في كثير من تلك

(١) المرجع السابق ٢٣٥ – ٢٣٦ .

النصوص في نمطيها المذكورين عنده : علاقة التمديد ، وعلاقة التصميم .

(١) علاقة التمديد

أما علاقة التمديد ، فقد وقعت في تلك النصوص بطرائقها الثلاث التي حددها هاليداى جميعا :

(أ) فالتمديد بالإحكام: نرى له نماذج مختلفة سواء في صورة العرض أم الشرح أم التوضيح:

(أولا) الإحكام في صورة العرض : ومنه قول الكندي:

- فاحذروهم كل الحذر ، ولا تأمنوهم على حال [(١)].

١ = ٢

وقول المازني :

- (عظماء الدنيا) يمتازون بالبساطة ، ولا يعرفون هذه الأصول المستحدثة[(٢)].

١ = ٢

وقول طه حسين عن الرافعي:

- يفلسف في الجمال والحب ، أي يضع نفسه بين الفلاسفة [(٣)].

١ = ٢

---

(١) البخلاء ص٧٨ .

(٢) مقال: القدماء والمحدثون ، من كتابه : حصاد الهشيم ص٢٢٣ .

(٣) مقال : أحسن إليّ ، ومن كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦ .

وقوله:

- الثورة عرض والانحطاط عرض ، كلاهما يزول ... [١] .

٢= ١

فيما سبق استخدمت الروابط مثل: الواو ، أي ، ولكن كثر إسقاطها في حالات أخرى .

(ثانيا) الإحكام في صورة الشرح: ومنه قول طه حسين:

- (أنصار القديم) يحيون حياتهم كارهين:

١

يأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأي [٢] . ٢=

وقوله عن الرافعي:

- هو متكلف يعرض لما لا يعلم ويصف ما لا يحس [٣] .

وقول محمد زكي عبد القادر:

- تستبد به النزوات ، نزوات المال أو السلطان [٤] .

٢= ١

(١) مقال: القديم والجديد ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣١ .

(٣) مقال : أحسن إليّ ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦ .

(٤) مقال : التعدد في حياة الإنسان من كتابه : الله في الإنسان ص١٣ .

(ثالثًا) الإحكام في صورة التوضيح: ومنه قول إخوان الصفا:

- (مسألة الإمامة) باقية إلى يومنا هذا ، لم تنفصل ... [(١)].

١ = ٢

وقول طه حسين:

- لم ينكر الفرنسيون ذلك (أن يضيف غيرهم إلى لغتهم) ، وإنما قبلوه [(٢)].

١ =٢

وقوله:

- اللغة ليست من وحي السماء ، وإنما هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنساني [(٣)].

١ =٢

ومما يلاحظ في التمديد بالإحكام أن النص الحجاجي العربي يميل إلى الإحكام بالتوضيح والإحكام بالعرض ميلا أقوى ، وإن كان ميله إلى الإحكام بالتوضيح هو الأقوى على الإطلاق .

(ب) وأما التمديد بالإطالة ، فنرى له أيضًا نماذج مختلفة من صورتيه: الإطالة بالإضافة ، والإطالة بالتنويع .

(أولا) من الإطالة بالإضافة: قول مصطفى محمود:

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٠ .

(٢) مقال : القديم والجديد ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ٣/ ٣٣ .

- الابن يقتل أباه ، والأم تقتل ابنها [(١)] .

٢+ ١

والإطالة بالإضافة نمط بارز جدًا عند مصطفى محمود بوجه خاص .

(ثانيا) ومن الإطالة بالتنويع: قول محمد زكي عبد القادر:

- من الألم ينبع كل شيء عظيم ، ولكن ليس كل ألم ينبع منه شيء عظيم [(٢)] .

٢+ ١

يعبر عن الصورة السابقة من الإطالة بالتنويع هكذا:

س ولكن ليس كل س ؛ أي هي إطالة باستثناء شيء ما من العنصر السابق .

ومن الإطالة بالتنويع أيضًا قول إخوان الصفا:

- لم يضف الله إلى نبوة محمد الملك لرغبته في الدنيا ،

١

ولكن أراد الله أن يجمع لأمته الدين والدنيا جميعا [(٣)] .

٢+

ويعبر عن هذه الصورة هكذا: ليس س ولكن ص .

(جـ) وأما التمديد بالتعظيم ، فنرى له في نصوصنا الحجاجية المختارة صورا عدة ، من أهمها ما يلي:

---

(١) مقال : أنشودة الأمل ، من كتابه : كلمة السر ص١٥ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ٤/ ٣٣ .

(أولا) التعظيم بالإشارة إلى الزمان ، ومنه قول إخوان الصفا:

- أقام النبي بمكة نحوا من اثنتي عشرة سنة ،

١

ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة [(١)].

٢×

وتسمى هذه الصورة بالتعظيم الزماني المتقدم ؛ أي: أ قبل ب .

(ثانيا) التعظيم بالطريقة ، ومنه قول إخوان الصفا أيضًا:

- كان يوسف الصديق من الزاهدين في الدنيا ،

١

وهكذا كان داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) [(٢)].

٢×

ما سبق يمثل التوازي في علاقة التمديد بالتعظيم في هيئة الطريقة من النوع الثاني وهو المقارنة . «هكذا» فيما سبق تعني: «بهذه الطريقة» ، ويقصد بها في هذه البنية من بنى التوازي المقارنة . هذه العلاقة نراها شائعة شيوعا خاصا في نصوص إخوان الصفا .

(ثالثا) التعظيم في هيئة العلاقة: سبب ← أثر ، ومنه قول طه حسين:

---

(١) المرجع نفسه ٤/ ٣٣ .

(٢) المرجع نفسه ٤/ ٢٣ .

- كان القدماء صادقين حين يكتبون ، ومن هنا فهمنا القدماء [(١)].

٢× ١

تبرهن نصوص الدراسة على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتمادا على هذه العلاقة .

(٢) علاقة التصميم

كان الاعتماد الرئيس في بنية التوازي بالنصوص الحجاجية التي بين أيدينا على علاقة التمديد . أما حالات التصميم ، فعددها بعدد حالات مقول القول ، سواء أكانت لصاحب النص أم لغيره . وهي قليلة جدًا إذا قورنت بعلاقة التمديد.

من التصميم بالقول قول إخوان الصفا:

- قال أزدشير: إن الملك والدين أخوان توأمان [(٢)].

٢» ١

ومنه قول الكندي:

- قال (صاحبنا لبني تغلب): إني والله كنت أجرى ما جرى هذا الغيل [(٣)].

٢» ١

ومن التصميم بالفكرة قول طه حسين:

---

(١) مقال: أحسن إليّ ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦ .
(٢) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٣ .
(٣) البخلاء ص ٧٩ .

– قدرته في نفسي (شيئًا آخر): لو أن للرافعي حظا من الإنصاف .. [1].

٢ ١

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ندرة التصميم بالفكرة في النصوص الحجاجية العربية ندرة بالغة .

التوازي بالمفهوم الاصطلاحي عند هاليداى بنية تركيبية أثيرة في خطاب الحجاج العربي . في هذا الخطاب تعد تلك البنية استراتيجية مهمة من استراتيجيات الإقناع بوجهة النظر . فضلا عن تقاطع بنية التوازي أحيانًا مع بنية التكرير المضموني ، على نحو ما يمكن أن نرى في بعض نماذج طرائق التمديد ؛ كقول الكندي: «فاحذروهم ... ولا تأمنوهم» ، أو قول طه حسين: «الثورة عرض والانحطاط عرض ، كلاهما يزول» ، نرى كذلك إطنابا قصد به الإقناع في بعض حالات التمديد بالعرض والشرح والتوضيح . وعندما يقول محمد زكي عبدالقادر مثلا: «من الألم ينبع كل شيء عظيم ... ولكن ليس كل ألم ...» ، فإنه يستعين بالنسق: س ولكن ليس كل س ، على إقناع القارئ بمصداقيته: الكاتب يظهر استقصاءه الذي لا يشك في دقته ، إذن سنطمئن إلى صدق دعواه .

كذلك الحال مع النسق الآخر: ليس س ولكن ص ، الذي يقدم العنصر الأول من بنية التوازي بطريقة تفرض على المخاطب أن يستنتج العنصر الثاني ؛ أي أنه يقدم العنصر الأول لمصلحة حصر المعنى في العنصر الثاني . المتكلم يقول للمخاطب: أهمل المعنى أو الفكرة في ١ واعتمد فقط على +٢ . بعبارة أخرى: ترسم +٢ حركة حجاجية معاكسة – أو على الأقل مخالفة – لوجهة النظر في ١.

(١) مقال: أحسن إليّ ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ١٢٥ .

ب/ ٣ بنية الازدواج

من المعروف أن «المزدوج» من أقسام الشعر ، وهو ما أتى على قافيتين قافيتين إلى آخر القصيدة . يمكن للوهلة الأولى النظر إلى «المزدوج» في النثر على أنه من باب حكايته بنية إيقاعية جوهرية في الشعر ذات تأثير سمعي وعاطفي في المستمع، ولكنا نحسبه أصيلا في نثر لغة ذات أصول شفاهية .

عولج المزدوج عند البيانيين مظهرًا من مظاهر الجودة في صناعة الكلام .

يستخلص من جملة ما ذكره القدماء عن «الازدواج» وما اختاروا له من نماذج من كلام العرب:

١- أن الازدواج تكوينات كلامية متوازنة الأجزاء في عدد وحداتها اللغوية، وهيئات ترتيبها ، وفواصلها .

٢- أن الازدواج يقع أيضًا ، على رغم الاختلاف بين الأجزاء في أحد الاعتبارات الثلاثة السابقة ، يقع في اعتبارين اثنين منها أحيانًا .

٣- إذا لم يقع التوازن بين الأجزاء في الطول ، فالأفضل أن يكون الجزء الأخير أطول ، وإن كان ورد في كلام العرب الفصحاء ما كان فيه الجزء الأخير أقصر .

٤- توازن الأجزاء توازنا كليا أجمل وجوه التوازن .

٥- فضلاً عما للتوازن من أثر سمعي إيجابي في رونق الكلام ، فإن له علاقته بتمكين معناه [١] .

---

(١) راجع مثلاً : البيان والتبيين ٢/ ١١٦ ، كتاب الصناعتين ص٢٦٠-٢٦٥ ، المثل السائر ١/ ٢٩١ .

ومهما يكن من أمر ، فإن استقراء نصوص الدراسة من حيث الاعتبارات المختلفة التي توفر للعبارات المزدوجة توازنا ، يدلنا على إمكان تصنيف التوازن في أنواع ثمانية ، يعرضها الجدول التالي (العلامة + تعني توفر الخاصية) :

الانفاق في الزنة		الاتفاق في الترتيب	الاتفاق في الفاصلة
تام	**ناقص**		
+		+	+
	+	+	+
		+	+
	+		+
			+
+		+	
	+	+	
		+	

وفيما يلي تفصيل تلك الأنوع:

(النوع الأول) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق التام في زنة الوحدات وعددها وهيئة ترتيبها ، وفي الفاصلة: ومن ذلك قول الكندي في سياق تبريره دعواه: «اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله ، وعن باكورات الفاكهة ؛ فإن للنفس **عند كل طارف نزوة وعند كل هاجم بدوة** »[(١)] .

(النوع الثاني) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في زنة وحداتها اتفاقا ناقصا ، فضلا عن الاتفاق في الترتيب والفاصلة: ومن ذلك قول الإخشيد مخاطبا

(١) البخلاء ص ٨٠ .

أرمانوس: «والذي تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته ، **فهو أمر سهل يسير، لأمر عظيم خطير** »[(١)].

(النوع الثالث) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في الترتيب والفاصلة دون زنة الوحدات: ومن ذلك قول العقاد: «كانت تسمع أكثر الأصوات **تنوع نبرات ، وتفاوت مقامات**»[(٢)].

(النوع الرابع) التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقا ناقصا مع الاتفاق في الفاصلة دون الترتيب . من ذلك قول العقاد في سياق استهجانه تكلف الرقة في الشعر: «فقد ينمّ هذا الكلف على داء دخيل ، ويشف عن ذبول في الطباع غير جميل»[(٣)].

(النوع الخامس) التوازن بالاتفاق في الفاصلة دون سائر الملامح الأخرى: ومن ذلك قول الكندي في سياق تبريره دعواه: «ورسول الله ﷺ لم يرحم عيالنا إلا بفضل رحمته لنا»[(٤)].

(النوع السادس) التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقا تاما وفي الترتيب دون الفاصلة: ومن ذلك قول طه حسين في سياق تقرير معطياته للجدل في مسألة القديم والجديد: «كان هذا الانتقال نفسه موجودا للخلاف بين **جديد طارئ وقديم زائل** »[(٥)].

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٤١٦ .

(٢) مقال: الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص ٩٥ .

(٣) مقال: الأدب العصري ، من كتابه: الفصول ص١٠١ .

(٤) البخلاء ص ٧٩ .

(٥) مقال: القديم والجديد ، من كتابه : حديث الأربعاء ٣/ ٣١ .

(النوع السابع) التوازن بالاتفاق الناقص في زنة الوحدات ، والاتفاق في الترتيب دون الفاصلة: ومن ذلك قول الكندي مقررًا دعواه عن المال: «وإنفاقه هو إتلافه ، وإن **حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب** »[(١)]. ومنه قوله أيضًا في سياق احتجاجه على من أنفق ماله: «فمدحتم من مدح صنوف الخطأ ، وذممتم من جمع صنوف الصواب»[(٢)].

(النوع الثامن) التوازن بالاتفاق في ترتيب الوحدات فقط: ومن ذلك قول خالد محمد خالد في سياق تبرير دعواه: «فالديمقراطية **حركة مجتمع ، وسبيل أمة ، ومنهج دستور** »[(٣)]. وقد يبدو هذا النوع في هيئة التقسيم الحسن الذي تكرر فيه بعض الوحدات ؛ كقول محمد زكي عبدالقادر في سياق احتياطه لدعواه: « ولا تصور للسعادة من غير شقوة تضاهيها ، ولا تصور للنجاح من غير فشل يسبقه»[(٤)]. وقد يبدو في أحيان أخرى أقل في هيئة التقسيم الحسن الذي تكرر فيه بعض الوحدات مع تقفية قبل نهاية الجزء . من ذلك مثلا قول طه حسين في سياق تدعيم تبريره: «وثق أنهم **ليسوا أقل الناس استمتاعا بلذات الحياة ، وليسوا أقل الناس استبشاعا لما فيها من بشع**»[(٥)].

مما يلاحظ هنا أن الأنواع السابقة من ١-٣ أكثر وقوعا في النص الحجاجي العربي القديم منه في النص الحجاجي الحديث . يرتبط هذا بالطبع بسمات النسق الكتابي العامة أو الغالبة بين كلا العهدين . ويلاحظ – من ناحية أخرى – أن

(١) البخلاء ص ٧٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .
(٣) مقال: تجربتنا مع الديمقراطية ، من كتابه : دفاع عن الديمقراطية ص٣٠ .
(٤) مقال: التعدد في حياة الإنسان ، من كتابه : الله في الإنسان ص١٣ .
(٥) مقال: القديم والجديد ، من كتابه: حديث الأربعاء ٣/ ٣١ .

الأنواع من ٤-٨ أكثر من سابقاتها وقوعا في النصوص الحجاجية العربية بعامة ، وإن كان النص الحجاجي العربي الحديث يبدي ناحيتها ميلا أقوى .

ينبغي الإشارة أيضًا إلى أن نصوص الحجاج الحديثة تتفاوت فيما بينها احتفاء ببنية الازدواج . يقل الازدواج عند العقاد ، ويندر عند المازني وخالد محمد خالد ومحمد زكي عبد القادر ومصطفى محمود . ولكنه أكثر من ذلك وقوعا – في صوره الأربعة الأخيرة مما سبق – عند طه حسين . وإذا نظرنا إلى الازدواج من منظور الوحدة التركيبية التي يقع فيها ، كأن يكون ازدواجا بين عبارات من جملة واحدة ، أو ازدواجا بين جمل تامة قائمة بذواتها ، لرأينا طه حسين أكثر ميلا إلى استخدام الازدواج بين الجمل . وإذا قارنا بين نصوص اثنين من القدماء هما الكندي والإخشيد (الذي يعكس له كاتبه في رسالته إلى أرمانوس طراز العصر في الكتابة الحجاجية) واثنين من المحدثين هما طه حسين والعقاد ، لرأينا أن الازدواج في النصوص الحجاجية القديمة يكاد يكون قسمة بين وقوعه في العبارات ووقوعه في الجمل ، ولكن الغلبة في النصوص الحجاجية الحديثة تبدو للازدواج بين جمل تامة. والجدول الإحصائي التالي يبين ذلك:

	بين عبارات من جملة	بين جملة تامة
طه حسين	٪٢٨,٦	٪٧١,٤
العقاد	٪١٦,٦	٪٨٣,٣

من الناحية الدلالية ، تتقاطع حالات التوازن مع حالات ينتظمها تكرير المضمون أو التقابل أو التخالف . تجمع الجملتان: «خارت عزائمها ومارت دعائمها» في كلام العقاد بين التوازن والتكرير المضموني . ويجمع الجزآن في

جملتين: «فمدحتم من مدح صنوف الخطأ ، وذممتم من جمع صنوف الصواب» في كلام الكندي بين التوازن والمقابلة . وتجمع الجملتان: «يقرءون مثل هذا الشر ويحتملون مثل هذا المنكر» في كلام طه حسين بين التوازن والمخالفة في المعنى .

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن حالات تقاطع التوازن بالتكرير المضموني يمثل ما يقرب من ثلاثة أرباع حالات تقاطعه مع العلاقات الدلالية الأخرى بين الأجزاء المتوازنة . وهذه مسألة مهمة للغاية لكل من التوازن والتكرير المضموني . نحن أمام مثل هذا القدر من العبارات والجمل المتوازنة على مستوى الشكل والمترادفة أو شبه المترادفة على مستوى المضمون . وهذه هي المنطقة المركزية الأهم التي تتفاعل فيها البنية والدلالة وتشتغلان معا في النص الحجاجي العربي وقد تهيأت له مكوناته الحجاجية المختلفة قصدا إلى تثبيت التبرير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصدق دعوى الحجاج .

إذا كان التوازي – بمفهومه الاصطلاحي الذي رأيناه آنفا – بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات دلالية منطقية ، فإن التوازن على نحو ما نرى بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات سمعية من طول وزنة وفاصلة تعكس فكرًا مرتبا متزنا مقنعا .

والحق أن بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين قد خلط خلطا ذريعا بين التوازي والتوازن . أولى بما ذكره عدنان جبوري وباربرا جونسون كوتش من حالات للتوازي أن تعد من حالات التوازن:

حلل عدنان جبوري نصا حجاجيا لمصطفى أمين في عموده الذي كان معروفا تحت عنوان «فكرة» . من أمثلة جبوري على التوازي في هذا النص قول مصطفى

أمين: «وكم من أحزاب حكمت ثم حوكمت ، وتولت ثم اندثرت ، وارتفعت ثم سقطت» [(١)] .

وحللت باربرا جونستون عددًا من النصوص الحجاجية تقع في النصف الثاني من القرن العشرين . من أمثلة باربرا على التوازي النصان التاليان:

(١) «ظل الألمان منقسمين بين عشرات الدول والدويلات المستقلة ، وظل الطليان موزعين على ثماني وحدات سياسية ، والبولونيون مقسومين بين ثلاث دول قوية ، واليوغوسلافيون خاضعين إلى حكم دولتين عظيمتين» .

وتسمى باربرا هذا النوع باسم التوازي الكاشف Listing parallelism ، وهو – كا تقول – نوع من التوازي الضيق المحكم بين عبارات كاملة ، تتميز بأنها أجزاء من النص ،تكشف عن أمثلة وتفاصيل .

(٢) «فكان من الطبيعي أن تنشأ الفكرة القومية ، وتترعرع وتقوي بسرعة كبيرة في البلاد الألمانية بعد النكبات التي توالت عليها خلال تلك الحروب . وكان من الطبيعي أن ينتشر فيه الإيمان بوحدة الأمة الألمانية . وكان من الطبيعي أن يدفع هذا الإيمان مفكري ألمانيا وساستها إلى مكافحة النزعات الإقليمية بكل قوة وحماسة» .

وتسمى هذا النوع باسم «التوازي التراكمي Cumulative parallelism» . وتعرفه بأنه نوع من التوازي غير التام على نحو ما كان في المثال الأول . وهو

(١) Al-Jubouri, A.J.R. : The Role of Repetition in Arabic Argumentave Discourse. In Swales J. and H. Mustafa (eds.): English for Specific Purposes in the Arab Word. Birmingham: Lanuage Services Unit. Aston Uni. (1984) pp. 99-117, p. 102 .

تراكمي لأن العناصر الثلاثة «كان من الطبيعي» من نوع التأثير التراكمي ؛ وذلك أن كل عنصر يبنى على العنصر الذي يسبقه [(١)].

نرى أن حالات التوازي عند هذين الباحثين ينبغي لها أن تدرج في حالات التوازن . هي ليست من التوازي بمفهومه الاصطلاحي في شيء ، إلا إذا التمسنا لها وجها من كلام القدماء . أورد أبو هلال العسكري أمثلة عدة على المزدوج من كلام الأعراب، حوفظ فيها غالبا على الطول والترتيب والفاصلة ، ثم علق عليها قائلاً : «فهذه الفصول متوازية لا زيادة في بعض أجزائها على بعض بل في القليل منها ، وقليل ذلك مغتفر لا يعتد به» [(٢)]. قصد بالتوازي هنا – فيما يفيد السياق- سوق كل جزء بإزاء الآخر وعلى شاكلته في الطول والفصل والترتيب . ولكننا الآن ، وقد صار التوازي يعني في المفهوم الاصطلاحي شيئًا آخر مختلفا ، لا نرى للخلط بينهما وتسمية أحدهما باسم الآخر وجها سائغا .

وعلى عكس جبوري وباربرا ، فهمت شيرلى أوستلر Schirley Ostler التوازن على حقيقته . من الناحية النحوية ، تبدو العربية – وفقا لشيرلى – مجاهدة من أجل تحقيق التوازن Balance ، على معنى التوافق الإيقاعي بين عناصر مترابطة . وهي ترى هذا التوافق (أو السيمترية) على مستوى نظم الجملة ، وفي تساوي عدد الوحدات المعجمية بين الجمل والعبارات [(٣)].

---

(١) Koch, Barbara, Johnstone: Presentation as Proof, op. cit., p. 50 .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

(٣) راجع في تفصيل ذلك:

Ostler, Schirley, E. : English in Parallels, op. cit., pp. 173-175.